المجلس الأعلى للثقافة



رواية

محمود قاسم



الثروة

رواية



محمود قاسم

القاهرة

١٩٨٣

بيان حول مؤلف الرواية

الاسم : محمود محمود قاسم
السن : ٣٢ عاما
العنوان : ٢٧ شارع الفهد ـ كرموز ـ الاسكندرية
مجالات النشر :

ـ ناقد ينشر دراسات فى مجالات الأدب والسينما بصفة دورية فى كل من المجلات والصحف :

ـ الاهرام ـ العربى ـ البيان ـ الفيصل ـ السينما والمسرح ـ الفنون ـ الأقلام ـ جريدة المساء ـ جريدة الهناء ـ نشرة نادى السينما بالقاهرة ـ مجلة الموقف العربى ـ مجلة الحياة السينمائية .

ـ له رواية بعنوان «لماذا» .
ـ تحت الطبع رواية «أوديسانا» .
اقتباس فى السينما المصرية (دراسة)
ـ عضو الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما .

ـ المشرف على اصدار نشرة مهرجان اسكندرية السينمائى والقاهرة السينمائى .

الثروة

قبل الميلاد

قال أبى لأمى فى ليلة زفافهما :

ـ علينا أن ندفع ديون هذه الشقة وأن نسعى بعد ذلك الى تكوين ثروة يمكننا بها أن نعيش سعداء نحن وأبناءنا وأحفادنا ٠

لم يحدد أبى ليلتها قيمة الثروة التى عليه أن يسعى للحصول عليها ٠٠ لكنه ضاجع عروسه بنهم فقد كان يرى أن الأبناء يمكنهم أن يأتوا لآبائهم بثروة كبيرة ٠٠ «وهم أيضا ثروة» ٠

عندما ولد أخى لم يكن أبى قد سدد الكثير من ديونه ٠٠ ولكن حساب هذه الديون ازداد قيمته ٠٠ فقد تعبت زوجته كثيرا وهى تلد ٠ اقترض الكثير من المال كى يقيم لابنه مراسيم استقبال طيبة ٠٠ «علينا أن نصرف ٠ لا عليك ٠٠ فيوما ما سوف نحصل على ثروة ٠٠» ولد أخى ضعيفا ٠ استطاع أبى أن يسدد بعض ديونه خلال

عدة سنوات ٠٠ ولأن ابنه عليل دائما فقد ذهبت به أمه الى الأطباء ٠٠ كثير من النقود يحتاجها ٠ وامرأة عليلة لاتود أن تنجب مرة ثانية لما رأته من أهوال فى ولادتها الأولى ٠٠ بعد عدة سنوات أظنها أحد عشر قرر أبى أن يجرب مرة أخرى ٠٠ لقد سدد ديونه كلها ٠٠ وعليه الآن أن يأتى بالوريث الثانى لهذه الثروة التى ستحل علينا يوما ما ٠٠ الخطوة الأولى هى أن ينتهى من سداد ديوننا ٠ ودائما الصفر نقطة انطلاق ٠٠ الانطلاق هنا يبدأ من وليد جديد يؤازر أخاه ٠٠ فى ليلة مبهجة تعرى الزوجان وتضاجعان طيلة الليل ٠ بعد تسعة أشهر كان الرجل قد أعد عدته لاستقبال الوريث الثانى لثروة كبيرة سوف تجىء يوما ٠٠

هذه المرة ولدت أمى بسهولة ٠٠ لم تتألم كثيرا مثلما فعلت فى المرة الأولى ٠ قبل أن يلفنى الطبيب فى لفافة صغيرة رأيت أبى يخرج مبلغا كبيرا كى يدفع ثمن العملية وأجرة الغرفة واكراميات ٠٠ كان يردد فى الردهة أن السعد قد حل بالأسرة هذه المرة ٠ فهو يدفع نقودا ليست من جيوب الآخرين ومع هذا أصبح أبى صفر اليدين صبيحة اليوم الثامن لحضورى ٠٠ فى هذا اليوم ذهب الى من يعطونه وطلب من جديد ٠٠ كى

يشترى أغذية وملابســا وهدية لى ‥ لم تعــد زوجته تســأله من أين يأتى بالنقود فهى تعــرف أنــه يجيــد التصرف ‥

أول لوحة استطعت أن أراها عندما عادت بى أمى من المستشفى هى «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» ‥ قال أبى :

ـ لقد جاء البنون ‥ وسوف يأتى المال يوما ما ، لاتقلقى ‥ فهذان الصغيران سوف يأتيان لنا بالثروة ٠

الفصل الأول :

عشرة أعوام .. تجاوز أخى العشرين من عمره .. فشل فى الدراسة عدة سنوات متكررة .. ضعيف البنية مثلما نزل من بطن أمه .. لم يكن أبى يرى فى تعليم ابنه فائدة .. سوف نعلمه مهنة يرتزق منها .. كان أبى قد بدأ فى ادخار مبالغ صغيرة منذ أن بلغت من العمر عاما .. «المال والبنون زينة الحياة ..» .. قال :

ـ سوف يسافر الولد الى أية بلدة يأتى لنا منها بالنقود . الشطار هناك يتحولون من أقوام فقراء الى ملاك لأكبر المؤسسات والثروات ..

لم تبال أمى أول الأمر برغبة زوجها .. كثيرا ماتكلم لكن الثروة لم تجىء حتى الآن . «طيلة العمر تبلغ الأمل» . بدأت ترتاب فى الأشهر الأخيرة وهى تراه يسافر الى أكثر من مكان داخل البلدة برفقة أبنه .. قال ان الصبى سيرحل الى مكان يمكنه فيه أن يعمل كى

يأتى بالثروة ٠٠ فقط عليه أن يرحل هنــاك ليكسب كثيرا ٠٠ «يمكنك ياصغيرى أن تبدأ كعامل بناء ٠٠ أو جامع قمــامة لتتحول خــلال ســنوات الى أكبر ثرى فى البلاد» ويمكنك أن تصبح يوما عضوا فى برلمان ٠٠ أو رئيسا لحزب ٠٠ أو ربما لدولة ٠٠ فقط ضع فى ذهنك أنك ستحقق ثروة» ٠٠

بدأت النقــود التى ادخــرها تنفذ من جــديد ٠٠ مصاريف جواز سفر ٠٠ اجراءات هجرة ٠٠ أوراق ٠٠ بطاقات هوية ٠ نقود كثيرة توضع فى الأدراج لتسهيل الاجراءات ٠ تنهد الرجل يوما وقال لزوجته ان نقوده قد نفذت وأن عليه أن يبحث من جديد عمن يقرضه ٠٠

لم يكن وقتهــا قد أنهى شــيئا يذكــر من هـــذه الاجراءات ٠٠ ذهب كثيرا مع ابنه ٠٠ وزارة الداخلية ٠٠وزارة الخارجية ٠٠ وزارة الحربية ٠٠ الولد ضعيف ومنهك القوى وبه عاهة شبه مستديمة ولايمكنه أن ينضم الى الخدمة العسكرية ٠٠ عليه أن يعرض نفسه على لجنة ٠٠ واجراءات اللجان طــويلة ويمكنك أن تأتى ومعك النقود لانها بعض الاجراءات ٠٠ وهناك رئيس للجنة الفحص التى يمكنها أن تتجاوز عن الكثير من الرسميات

كى يمكنك أن تعفى ابنك من الالتحاق بالعسكرية ..
وكى يتمكن من الرحيل الى بلاد الاثرياء ..

قالت أمى لزوجها :

- هـذا الأمـر يحتاج للكثير من الجهـد والأمـوال والمخاطر ..

قال بروحه المرحة : لا عليك . كل شىء يتدبر .

عنـدما عارضته مـرة ثانية قال انه يفكر بنفس اسلوب العلماء المحنكين في الاقتصاد .. كى يمكنك أن تحقق ثروة فعليك أن تمتلك أصولا ثابتة وأخرى متغيرة .. الولدان اصـول ثابتة لاتقـدر بثمن .. والاصول المتغيرة يمكن تدبيرها .. وعلى قدر هذه الاصول يمكنك أن تحقق بشطارتك .. لكن أية أصول تنفع للحركة ؟»
فى اليوم التالى ذهب الرجل كى يستلم شهادة اعفاء ابنه من الالتحاق بالتجنيد .. «غير لائق طبيا» .. أقام فى المنزل حفلا بسيطا .. فى المساء ضاجع زوجته فرحا .. كنت أذاكر فى الغرفة المجاورة وأنا أسمع ضحكاتهما . همسهما . خرج بعد أن انتهى الى الحمام ثم طلب منى أن أنام . الآن الوقت متأخر .. فعلت .. ولا أعرف هل عاد ليفعل أشياء أخرى أم أنه اكتفى ؟.

منذ اليوم التالى بدأ الرجل فى الذهاب من جديد
ـ مع ابنه ـ الى مكاتب عديدة لاستخراج شهادات ..
المهنة لاتهم .. ستعمل هناك زبالا أو أميرا .. لكنك
ستعمل .. التمغات . والتوقيعات . والأختام كلها ليست
مجانية .. بدأت حصيلة الديون تزداد . نسى أبى
الأرقام لكن اهتمامه وحماسه لسفر ابنه كان زائدا عن
الحاجة .. زوجته تعترض ان ابنها لن يستطيع أن يواجه
عالما غريبا عنه .. قال ان عليها أن تسعى كى تعلمه
لغة البلاد التى سيسافر اليها .. «من تعلم لغة قوم ..»
فى الصباح يذهب الرجل وابنه الى المكاتب لانهاء
الاجراءت .. فى المساء يجلس التلميذ الضعيف البنية
أمام والدته تعلمه كيف يقرأ ويتكلم .. يجلس أمام
التليفزيون .. يستمع الى الاذاعة .. يحضر له أبوه
المجلات ليقرأها .. لم يتقدم كثيرا خلال الأشهر التى
انتهت فيها الاجراءات .. كل ماتعلمه حين استقل سفينته
الضخمة هو أن يقول للآخرين .. «كيف حالك .. أود
أن أعمل .. شكرا» ..

فى احدى أمسياتهما الهادئة سألت أمى زوجها
تداعبه :

ـ لم لاتسافر معه .. أو لا نسافر جميعا ونحقق الثروة هناك ؟

ظل الرجل شاردا بعض الوقت وهو لايعرف اجابة ولم يرد .. تحدث معها فى تلك الأمسية أحاديثا كثيرة ليس بينها ردا واحدا للسؤال .. بعد عدة أيام تخمرت الاجابة بكاملها في ذهنه فقال لها :

ـ اذا نجح الصغير هناك فسوف نذهب إليه .. لكنني أعتقد أنه سيحقق الكثير من الثروة وسيعود بها ونحقق لأبنائنا وأحفادنا معيشة طيبة ..

بعد دقائق أخرى قال ان علينا ألا نترك بلادنا الا لنعود اليها «ونحن لانريد أن نجتث أنفسنا من أتربة هذه الأرض» ..

فى الصيف كنا نذهب كالعادة الى الشاطىء .. اعتاد أبى أن يصحب أسرته الى مكان هادىء بعيد عن الأعين كى يتمكن أفرادها من التصرف بحرية .. تود أمى أن ترتدى لباس بحر وتداعب المياه كما تشاء .. ثم تسترخى فوق الرمال أمام أعين زوجها التى لم تعد ترقبها كثيرا .. بينما ولداه يسبحا وإمرأته ممدة تحت الشمس تقرأ كتابا . كانت عيناه تحلق فى الفضاء ..

كأنها تخترق المسافات عبر البحر وترى الثروة قادمة فوق سفينة ضخمة محملة بالذهب والفضة والعملات المتعددة فى صناديق مكتوب عليها اسمه ·· فى مرة جمعنا ثلاثتنا بين قدميه · أخذ يربت على بيسراه وقال :

ـ انظروا خلف هذا البحر · على أى واحد منا أن يذهب هناك ويمارس شطارته ويعود لينقذنا من الفقر ·· أمكما لن تذهب ·· وأنا على أن أرعى الباقين هنا ·· وهذا الصغير أمامه زمن طويل ·· لم يبق سواك ·· وأشار الى أخى ·· انفجرت أمى ضاحكة ·· لقد أجاب الرجل على سؤالها دون أن تعيد سؤاله ·

فى هذه الأيام قضت أسرتنا أياما جميلة ·· يصطحبنا أبى فى المساء لقضاء بعض السهرات فى أماكن هادئة ·· تبدو لى كعروس جميلة بهية الحسن ·· بسيطة ·· يرتدى أبى ملابس السهرة وقد اصطحب طفليه وجلس يتحدث مع زوجته فى موضوعات عديدة ·· يبدوان كأنهما عشيقين تعرفا على بعضهما منذ فترة وجيزة ·· فى احدى تلك الأمسيات رأينا أبى يقوم من مكانه مهللا ·· اقترب من رجل فى مثل عمره تقريبا ··

تعانقا بحرارة • يربت كل منهما على الآخر بمفرده •• أشار أبى الينا فبدأ الرجل يصافحنا •

ـ صديق عزيز •• رحل عن البلاد منذ سنوات ليعود وقد حقق أمله ••

نظر اليه كى يؤكد الرجل مايقول •• قال الصديق :

ـ بالطبع •• خمسة عشر عاما هناك •• زوجة جميلة •• وثروة طيبة •

أشار الرجل الى امرأته الجالسة فى أحد المقاعد المجاورة •• قامت لتصافحنا •• اقترح أبى دعوة زميله لتناول المشروبات •• جلسنا ـ نحن الست ـ معا •• قال الصديق ان البقاء هنا نوع من الخمول •• عليك أن تقتل كل مشاعر الحنين والشوق والاغتراب كى تنجح هناك •• أن تعمل أى شىء ••

كان أبى يشير الى ابنه وزوجته بين كل عبارة وأخرى يقولها صديقه •

ـ عندما سافرت كان أبى مديونا •• وأمى لاتودنى أن أسافر •• واخوتى يؤكدون فشلى •• وبمجرد أن

وصلت هناك نسيت آية ارتباطات لى ببلادى .. عملت كثيرا .. وكسبت كثيرا .

بدى فخورا بنفسه .. لم يتكلم عن امرأته كثيرا .. اكتفت بالابتسام بين الحين والآخر .. بعد أن طال الحديث بدت أمى ملولة . وجدت أن من الأفضل أن تحادث الزوجة في عدة أشياء ليس من بينها الهجرة أو الغربة أو الثروة .. بينما جلس أبى يحاول أن يعرف أشياء عديدة وكثيرة عما يمكن أن يقابله ابنه فى رحلته .. فى طريقنا الى المنزل بلغت رغبة أبى أوجها كي يسافر ابنه الى هناك . فى تلك الليلة جلس أبي على سريره يحلم برؤية ابنه جالسا فى منزل ضخم تحفه حدائق وحوله سور كبير عليه كثير من الحرس .. هناك زوجة أكثر حسنا من زوجة صديقه .. أبناء أكثر ثقافة وخفة ظل .. يجلس على مقعد أمامه مكتب فاخر وقد تحول جسده النحيل الى الامتلاء .. شاربه يتدلى تحت أنفه .. يرتدى ملابسا فاخرة .. يصدر أمرا الى عماله أن يملئوا صندوقا بالعملات الذهبية . ويرسلونها الى أبيه .. لكن ماذا سيفعل لو زادت هذه النقود عن الحد المطلوب .. أو بالأحرى ماذا سيفعل مع وصول أول صندوق .. «أول شىء هو أن أبنى بيتا من بيوت الله ..

بيت ضخم» به الكثير من وسائل الراحة لمؤميه ٠٠ أضواء ٠٠ وأثاث ممتاز ٠٠ سوف أحاول أن أجذب الناس لهذا المكان ٠٠ واذا زادت النقود فماذا يفعل ؟ قال لزوجته يوما وهما على الشاطىء :

وسأقيم منزلا كبيرا فى مكان كهذا ٠٠ تحفه الأسوار الضخمة ٠٠ لايمكن لأحد آن يدخله ٠ وسأكتب على الباب ان هذه مملكتي تخصنى وأبنائي وأحفادى وليس على أحد أن يدخلها سوى من أسمح له ٠٠ سأخصص جيشا بأكمله يحمينى من المتطفلين ٠٠ وسأقيم لهذا الجيش معسكرا حول البيت ٠٠ سيجملون بنادقا وسهاما ٠ سيراقبون الشاطىء ٠٠ ويحاربون الغزاة ٠٠ وهؤلاء الذين يريدون آن يفسدوا على متعتى ٠٠ آما داخل المنزل فسوف أفترشه بأثاث فخم وسأعيش كأمير من أمراء ألف ليلة ٠٠ سأحضر الكثير من الحسان وسأجعل منهن حريم لى ٠٠ وسيتعرين وهن يدلكن ظهرى ٠٠ آو يحاولن ابعاد ذبابة دخلت من احدى النوافذ ٠

عندما تضايقت زوجته من أحلامه قال :

« أكل هذا من أجل صنع مملكتى الخاصة ٠٠؟٠٠ لن آفعل هذا ٠٠ سوف آوزع الثروة التى سيرسلها الولد

على الفقراء ٠٠ سأبنى للمعوزين منهم مساكنا نموذجية يعيشون فيها ٠٠ سأفعل مثل تولستوى فى آخر حياته ٠٠ وسوف تقول عنى زوجتى اننى جننت» ٠

قالت يومها اننى قد جننت فعلا ٠

لم ينم أبى فى تلك الليلة ٠ جلس يتصور ماسيفعله بالثروة التى ستأتيه يوما ٠٠ أما زوجته فقد غرقت فى سبات عميق ٠٠ تحلم أن تصبح مثل المرأة التى جاءت من الطرف الآخر من البحر ٠٠ ليست أكثر منها جمالا ٠٠ ولكن روائح الثراء تفوح من كل شىء فيها ٠٠ عطور غالية ٠٠ ملابس فخمة ٠٠ وسيارة فاخرة ٠٠ رأت نفسها ترتدى نفس الملابس التى تخيلها زوجها يوما ٠٠ احدى أميرات ألف ليلة وقد حامت حول زوجها وحدها وليس معها أحد سوى ولديها ٠٠ أحدهما عاد من السفر ٠٠ والآخر اشتد عوده وتزوج ٠

تنبهت أمى من نومها وعادت لتحلم أحلاما أخرى أكثر واقعية ٠ بعد عدة أيام نست تماما ذلك اللقاء وبدأت تعترض من جديد على أفكار زوجها فى سفر ابنهما الى الخارج ٠

ازداد اصرار الرجل حاول الانتهاء من اعداد أوراق

ابنه • تأشيرة الخروج تأشيرة دخول بلاد الثراء •• لم يبق سوى أن يشترى تذكرة السفر •• بدى هناك سؤال ملح • هل سيرحل بالطائرة أم بالسفينة •• تراكمت الديون •• سعر الباخرة أقل • فضلا أن الفتى يمكن أن يخالط أقواما كثيرين لعدة أيام قبل أن يصل إلى بلاد الغريبة •• فيتكلم •

قال لزوجته :

ــ يجب أن نعتنى بغذاء الفتى حتى لايظل هزيلا • وحتى يمكن لأى صاحب عمل أن يوكل اليه مايشاء •• بدأت الأم تعتنى بطعام ابنهـــا •• لكن الفتى حين أقل السفينة كان نحيفا جدا بل أنه حاول أن يخفى سـعالا كان ينخر صدره ••

بدأ العد التنازلى لرحيل الابن الأكبر •• على الفتى أن يسافر •• أعدت أمى الحقائب •• انهال أبى عليه بالنصائح • عليك أن تنام مبكرا •• لاتسهر كثيرا خارج المنزل •• يكتفى بهز رأسه •• ربما يسجل داخلها كل مايقـــال •• أو لعله يسـمعها باذن لتخـــرج من الاذن الأخرى •

أعدت أمى كل الحقائب بعد أن اشترى تذكرة السفينة ·· سيسافر فى التاسعة مساء ·· عندما عاد أبى ومعه التذكرة انهال على ابنه تقبيلا وأخذ يخرج من فمه مجموعة جديدة من النصائح · بدى كأن الفتى سيذهب بالتذكرة الى حفلة مسائية لاحدى دور السينما وسيعود فى منتصف الليل لينام فى سريره ويتغطى بنفس الأغطية ·· لكن الحقائب ثقيلة ·· شعر بثقل الحمل الذى عليه فى آخر ليلة له بالمنزل · جلس الوالدان شاردين ·· الأم تبكى من فترة لأخرى ·· والأب يفكر فى معان عديدة حول الثروة ·· ان سفر ابنه يعد مغامرة لا طائل منها ·· وهذا أمر يعد فى حد ذاته فقدان لثروة أخذ يصرف عليها الكثير طيلة عشرين عاما ·· قالت امرأته وهى تجفف دموعها :

ـ نومه هنا تحت سقف أبويه أفضل من كل ثروات الأمم ·

غالب زوجها رأيه فقال :

ـ سيعود يوما وقد اشتد عوده وتعلم المسئولية وقد حقق لنا أشياء كثيرة نأملها ·· يومها سننسى كل الارهاقات التى سببتها لنا الديون ·· وكل الآلام التى

تصيب أبوين يرحل عنهما ولدهما .. علينا أن نعتبره متزوجا فى مدينة ليست بعيدة جدا ..

فى تلك الليلة نام أخى بجانبى قرير العين .. لايشعر بأية مسئولية ملقاة على عاتقه .. لعله يحلم بأشياء أخرى غير التى حلم بها أبوه يوما .. لم يحلم الرجل فى نفس الليلة لأنه بقى وامرأته ساهرين يتحدثان حتى الصباح .

فى الخامسة مساء ذهب ثلاثتهم . بقيت فى المنزل .. قبلت أخى وأنا أبكى . لم أكن أعرف الى متى سيدوم الرحيل .. لكن دموع أمى جعلتنى أبكى .. نظر الفتى الينا فى بلاهة وابتسم كأنه يحاول أن يسرى عن الجميع .. أومأ على ظهرى ثم حمل حقيبته الصغيرة . وخرج . وقفت فى الشرفة أرقب السيارة التى تقلهم .. لم يرفع الى عينيه .. ولم ينظر الى بعض الجيران الذين وقفوا فى شرفاتهم يحاولون توديعه .. صعد والداه الى السيارة وذهبوا .

قالت أمى انها بكت عندما ودعته .. لا أعرف هل بكى ابنها أم أنه قابل نحيب أمه بنفس الابتسامة .. أخفى الأب دموعه وهو يلقى عليه النصائح .. كان أخى ـ عندما صعد السفينة ـ يعرف تماما أنه سيذهب

فى رحلة قصيرة وأنه سينام مع أخيه فى نفس الليلة ٠٠ـ تعلم من لغة البلاد التى ذهب اليها ثلاث عبارات «كيف حالك ٠٠؟ أود أن أعمل ٠٠ شكرا» ٠٠

لم يتحرك الزوجان الا بعد أن تحركت السفينة ٠٠ فكت السلاسل ٠٠ تحركت حاملة فوق متنها فتى لم يبلغ العشرين من عمره بعد ٠٠ على سماه بعض علامات البله ٠٠ راحلا الى بلاد بعيدة ٠٠ يحاول أن يسدد ديون أبيه ٠٠ ويحقق لأسرته كلها ثروة ٠٠

الفصل الثانى :

أخيرا .. بعد عشر سنوات تمكن أبى من تسديد كل ديونه .. لم يكن يتصور أن العبء سيكون ثقيلا هكذا .. وأن المبالغ ستتعدد مصادرها . اقترض من بنك . وبعض الأقارب . وبعض الزملاء . والأصدقاء . شعر بالعبء يزداد عندما مات أحد أصدقائه المقربين قرضه مبلغا كبيرا .. ترك أسرة من خمسة أفراد .. بدأ الحال ينزل شيئا فشيئا بعد رحيل عائلها .. شعر أبى بأن فى عنقه دين ثقيل وعليه أن يسدده .. آخذ يقترض بدوره من هنا وهناك ليدفع لأرملة صديقه .. بدأ يهتم بأحوال الاسرة أكثر من جانب الماديات .. هذا الطفل مريض . ذاك يود تشجيعا فى تذكر دروسه . عاد أبى فى ساعة متأخرة من الليل فصاحت فيه زوجته غاضبة :

ـ هل انتقل الاهتمام من أولاد صديقك الى زوجته ؟

قالت انه لايمكن أن تتحول الأمور الى صورة مشبوهة

مثلما يحدث ·· أرملة جميلة ومعها صـديق زوجهـا الراحل فى ساعة متأخرة من الليل · خافت أمى أن يفكر زوجها فى انجاب ابن ثالث كى يتمكن من اعداد العدة لترحيـلى لأسـاعد آخى فى احضـار الثروة ·· قال زوجها :

ـ لايوجد فى الدنيا امرأة غيرك ·

انها تعرف أنه لم يعد الرجل القوى الممارسة مثلما كان فى أول ليلة تزوجا فيها ·· العزيمـة تملئه ·· الثروة تشـع فى رأسـه ·· نام يومها بكل مايملك من قوة ·· لكن ابنه ولد هزيلا · عندما كرر نفس المحاولة من أجلى جئت أكثر ذكاء وأشد قوة ·· لكننى من وقت لآخر أشعر ببعض التعب فى صدرى ··

قالت لزوجها :

ـ سدد ديونك لأبناء صـديقك وكفاك أعمـالا خيرة ·

لكن المبلغ الذى اقترضه أبى من صديقه كان كبيرا ·· وعد أن يسدده على فترة طويلة ·· اكفهر وجه أمى وهى تتصور كم من الليالى سيذهب الرجل ليسدد دينه ·· قالت تداعبه :

ـ هل يجب أن تسدد الدين بأسلوبك الخاص ٠٠؟
في تلك الليلة غضب أبي كثيرا وقال ان عليها ألا تداعبه بمثل هذه الأقاويل ٠

لم يكف أبي عن زيارة منزل صديقه ٠ أو كما ترى أمي منزل أرملة صديقه ٠٠ ومع أنها كفت عن الحديث مع زوجها عن هذه الزيارات المتكررة الا أنها تعرف تماما أن زوجها لايمكنه أن يفعل شيئا مما تقصد حتى لو كانت زليخة خلفه ٠٠ عاشت وسط هواجس غريبة في تلك الأيام ٠٠ زوجها في واد بعيد عنها ٠٠ لايفكر معها مثلما اعتادا ٠٠ ولا يطلب مشورتها كثيرا ٠٠ لم تعد تشاركه الجوانب القانونية للعديد من الصفقات الفاشلة التي يعقدها ٠٠ أحيانا يشعر أنه قد اقترب من الهاوية ٠٠ وأحيانا أخرى يتخيل أنه اقترب من تسديد كل ديونه لكنه مع ذلك كان هادئا ٠٠ لم يكف عن مغازلة امرأته ٠٠ ولم يكف عن الذهاب الى الشاطىء في كل صيف ٠٠ ألعب أنا وحدى فوق الرمال وترقد أمي تحت أشعة الشمس تسعى الى تلوين جسدها البرنزى ٠ تقرأ كتابا ٠ يشرد الرجل ناظرا الى ماوراء المياه كأنه ينتظر رسالة تحملها احدى السفن ٠٠ أو تسقطها فوقه احدى اناث الحمام الزاجل أو يرميها من السماء أحد الصواريخ

العابرة للقارات ·· أو تخرج من البحر فى احدى الزجاجات ·· اعتقد أبى يوما أنه يمكنه أن ينهى ديونه من خلال بعض طرق الكسب السريع ورقة يانصيب ·· لايمنع الأمر من دخوله احدى صالات اللعب بمبلغ صغير ·· يخرج فى كل مرة خاسرا · لم يفقد ابتسامته يوما · يلوم زوجته لأنها بدت مثل النساء اللائى فى سنها تميل الى الثرثرة ·· والجلوس فى المنزل والعناية بشئون ابنها ·· أصبحت بدينة شيئا ما ··

رفع احدى الدائنين دعوى على الرجل كى يسدد مبلغا اقترضه منه ·· بدى الرجل خاويا فى تلك الفترة ·· ذهب الى صديقه وعرض عليه أن يعمل فى مكتبه عدة ساعات يوميا لعام بأكمله ·· وافق الرجل على مضض وسحب دعواه · قال ان المبلغ الذى اقترضه أهم من العمل ·· بعد ستة أشهر نجح أبى أن يوفر مبلغا وسدده لصديقه وقال له وهو يخرج من مكتبه :

ـ اعتبر الأيام التى عملت فيها معك بمثابة فوائد لديونى طرفك ··

ولم يقابل الرجل بعد ذلك قط ·

شعر أبى بمدى المسئولية عندما دخلت زوجته

المستشفى يوما ·· رقدت هناك أكثر من عشرين يوما ·· البيت خاو الا من الرجل وابنه ·· القذارة زحفت على كل مكان فى الشقة ·· بعد أن اتسخت كل الأطباق والأوانى بدأ يشترى الاطعمة الجاهزة · يذهب لقضاء الكثير من الوقت مع زوجته · قدم أكثر من طلب للعمل كى يحصل على معونة تمكنه من علاج زوجته · بعد أن خرجت المرأة رقدت فى منزلها فترة قبل أن تتولى أعباء المنزل من جديد ·· عندما شفيت كانت ديونه قد بلغت رقما كبيرا · كتب يومها رسالة لابنه أن يرسل مبلغا من الثروة ثم عليه أن يرسل بقية الثروة فيما بعد على راحته ·

لم ينقذ الموقف فى منزلنا الا ذلك العرض الذى قدمه أحد أساتذة الجامعة لأمى بترجمة مجموعة من الكتب · انهمكت المرأة ليلا نهارا للانتهاء من بعضها ·· كان أبى يساعدها · ويقوم بنسخ ماتترجم ، استطاعا خلال نصف الفترة المحددة أن ينتهيا من الترجمة ·· استلم أبى المبلغ فسدد بنصفه جزءا كبيرا من ديونه وقام بشراء مجموعة من الهدايا لزوجته · لازمت فراشها ثانيا تستمع الى الاذاعة وتحاول أن تحثنى على الاستذكار ··

استمر أبى فى البحث عن أعمال أخرى يقوم خلالها بمساعدة زوجته وتوفير الراحة لها ·

بدت أمى أكثر حساسية وعصبية لكنها أحيانا تبدو هادئة تبكى وتشكى ·· قالت لو انها أنجبت فتاة لساعدتها فى هذه المحنة · ولدها مسافر فيما وراء البحار والثانى يجلس يستذكروالرجل مشغول بمشاريعه الخاصة ·· وهى تعانى من آلام عديدة ·· لم يعد للأشياء نفس مذاقها البسيط ·· قالت لزوجها :

ـ أخاف أن تأتينا أموالا فنفقد حلاوة الأشياء · من الأفضل ألا يرسل ابننا شيئا ·

مط الرجل شفتيه وقال :

ـ بدأت تشعرين بالعجز قبل أوانه ·· فلنخرج ·

فى تلك الليلة خرجا معا الى أماكن لم يرتادها من قبل ·· سمعت فيما بعد أنه حاول تقبيلها وسط الشارع ·· وانه حاول تقليد المراهقين ·· عادا سعيدين · سألها فى غرفتها ·

ـ لماذا لانحاول أن نأتى بفتاة ؟

أمى تعرف أن سن الحمل قد فاتها ·· مع ذلك

شاركت زوجها متعته كأنهما يفعلان هذه الأشياء لأول مرة ..

لم تحمل المرأة .. لا بفتاة . ولا ولد .. ولم تتكرر هذه الأشياء كثيرا فيما بعد .. كان عليها أن تعمل من جديد . أن تقوم بترجمة كتب وتوفر لمنزلها راحات جديدة .. قالت لزوجها ان الستائر والأثاث تحتاج الى تغيير . وان عليهما أن يوافرا مبلغا طيبا من أجل هذا الأمر .. لايزال الرجل مديونا بجزء كبير من المال . لايزال يزور أرملة صديقه من فترة لأخرى ويعطيها بعض المال .. ومع هذا وافق امرأته أن يقوما بتجديد العديد من أثاث المنزل .

استغرق الأمر كثيرا من الوقت . والمال . والتعب .. أمى تود أن تصبح شقتها جنة . تطلب من العمال أن يعملوا بأمانة . تساعد بعضهم .. تنظف . تقترح . لم تكن صحتها على مايرام . بدت سعيدة وهى ترى ديكورا جديدا يكسو بيتها . أحاول مساعدتها فترفض . بعد أن انتهى تجديد ديكور المنزل وبعض الأثاث جلس أبى من جديد يجمع ماعليه من ديون .. نفخ ليلتها وقد بدى على ملامحه الكثير من الانزعاج .. قال لامرأته وهو يقبلها :

ـ عليك ألا تمرضين أو تحاولين ذلك .. عليك أن تترجمي خمسين كتابا على الأقل كي نخرج من هذه المحنة . في صباح اليوم التالى بدأت أمى فى أعمال الترجمة . طلبت منى أن أعاونها لأول مرة .. تمليني فأكتب ويتولى زوجها المراجعة والتصحيح والنسخ على الآلة الكاتبة . فى أمسية كل خميس يجمع كتابا بأكمله إنتهينا من ترجمته خلال اسبوع .. ثم يحسب رصيده .. استطاعت أمي خلال ستة أشهر أخرى ترجمة أكثر من عشرين كتاب ساعدت ايراداتها فى تخفيف الأزمة . لكن أمى رقدت فى سريرها . يوم قررت أن تستريح وهى تنظر الى ديكور المنزل الذى بدى فى عينيها أنه يحتاج الى تجديد آخر ..

عندما رأى أبى درجاتى صمم ألا أحاول مساعدتهم فى أى شىء .. قالت أمى :

ـ اذا كنت تنتظر ثروة من ابنك الذى سافر . فعليك أن تعلم ابنك الثانى كيف يستغل هذه الثروة الإستغلال الأمثل .. تعلمه الحسابات وأعمال البنوك والديون والتجارة . عليه أن يجتهد كى يلتحق بكلية التجارة وأن تساعده على قراءة علوم الاقتصاد والتنمية ..

وبالرغم من حبى لعلوم الكيمياء والطبيعة والذرة والفضاء الا أن أبى بـدأ يوجهنى من جـديد الى قراءة ما أوصته أمى ٠٠ لم أكن أرغب ٠ كنت أراها أشياء ثقيلة ٠٠ أبى هو الذى يود أن يصنع ثروة ولست أنا ٠٠

سأتزوج من فتاة فقيرة وسأقول لها ليلة زفافنا : «علينا أن ندفع ديوننا ٠ لكن ليس علينا أن نرسل أى من أبنائنا خارج البـلاد ليأتى بثروة ٠٠ فدفء أحضـان الأبناء أفضل من كل ثروات الدنيـا ٠٠ قال أبى سـاخرا من أفكارى :

ـ تعلم أن تكون واقعيا ٠٠

نظرت أمى اليه كأنها تود أن تقول له نفس العبارة ٠ قرأ الرجل المعنى فى عيون زوجته قال :

ـ أنا واقعى ٠٠ سوف تصل الأموال يوما وسوف نودع الفقر الى الأبد ٠٠

تنهدت المرأة وهى تقول :

ـ حتى الآن لم يصل شىء ٠٠

بدأ أبى يخفى كتب الكيمياء والطبيعة ٠٠ ويأتى لى بثروات الأمم ٠ «كيف تصبح ناجحا» ٠٠ و «التطور

الاقتصادى» و «النقود والبنوك» ·· لم أقرأ منها حرفا واحد ·· كان يغضب منى قائلا اننى بهذا سوف أبدد الثروة كى يمكنه أن يعمل على تنميتها هنا ·

ومع ذلك وجدت أوراقى تنساب رغما عنى الى كلية التجارة ·· فى الاجازة الصيفية قبل بدء الدراسة كنا كثيرا ماننذهب الى الشاطىء ·· حاول أبى أن يحثنى على القراءة فى كتب الاقتصاد حين يسبح معى محاولا أن يسبقنى ·· ونحن نتناول غذاءنا تحت المظلة · اقتنعت أمى أن على زوجها أن يفعل حتى يمكننى التفوق فى دراستى فربما تاتى الثروة من التفوق آكثر من وصولها من عبر البحار ·· لكنها كانت ترى أن على أن أقتنع أولا بما سادرسه وألا أتحادث حوله على موائد الطعام أو فى أوقات نزهتى حتى لايصاب الولد بالملل والقرف · كما كانت تقول لأبى ··

بدى الرجل سعيدا وأنا أقول بعد عدة أشهر من التحاقى بالكلية ان هناك خطة طيبة يمكننا بها جدولة تسديد كل الديون وتوفير فائض طيب يمكننا الاعتماد عليه دون انتظار الثروة ·· قبلنى الرجل وهو ينطلق فى الشقة فرحا كانه طفل حصل على هدية رائعة ·· قبل زوجته وهو يهلل :

ـ لقد أنجبت وأجدت التربية ‥ سوف يرسل الكبير الأموال ٠ وسيجيد الصغير جدولة الديون وسنعيش منعمين ‥ وداعا أيها الفقر ‥ لقد قتلناك الى الأبد ‥

كان كل همى أن أسدد ديون أبى ‥ حتى تقل حدة التوتر فى المنزل ‥ الا أن الرجل بدى يشعرى بالسعادة البالغة وهو يقترض من هذا ليعطى ذاك ‥ ويأخذ من البنك الذى يقدم فوائد أقل الى بنك آخر يعطى أكثر ‥ يبدو مغتبطا وهو يرى دفتر حساباته وقد رسم فيه خطا بيانيا يوضح ارتفاع وانخفاض كمية الديون المتراكمة عليه ‥ قال لزوجته يوما :

ـ سوف ترين هذا الرسم مرتفعا مع فارق واحد هو أننا سوف ندين الآخرين ٠ ولن نطلب منهم فائدة على ماأخذوه ٠

بدأ يناقشنى فى كيفية توفير مبالغ جديدة كى يمكن تسديد بعض الديون التى عليه أن يدفعها ‥ قلت له أن عليه أن يقيم مشروعا تجاريا بسيطا يدر عائدا طيبا يمكن به أن يجدول ديونه ‥ تحمس الرجل فى أول الأمر للفكرة ٠ لكنه بدى فاترا بعد عدة أيام وأنا أعرض

عليه الفكرة من جديد . آبى رجل متقلب . يتناقش اليوم بحماس فى موضوع ثم يعارض فكرته تماما فى اليوم التالى .. تجده كئيبا ثم ينقلب الى مهرج بين لحظة وأخرى .. كانت أمى كثيرا ماتتضايق من هذا السلوك .. لكنها اعتادت عليه .. علمته كيف يكبح شـهواته ورغباته ازاء الكثير من الأمور .. الشىء الوحيد الذى لم تستطع أن تثنيه عن عزمه ولا أن تقلل من حدته هو رغبته فى الثراء .. وأن عليه أن يفكر بواقعية أكثر .. لكن آبى لم يفقد يوما الأمـل فى آن هنـاك ثروة ستجىء من ابنه الذى يعمل فى الطرف الآخر من البحر . وانه يجد الآن ويجتهد ويدخر كى يرسل لنا جميعا هذه الثروة ..

الفصل الثالث :

مضى عشرون عاما بأكملها على رحيل أخى لأول مرة الى ماوراء البحار ٠٠ كى يعمل على تكوين ثروة طيبة يرسل الجزء الأكبر منها الى أبيه ثم يسعى الى تكوين أموال أخرى ٠ وعليه بعد ذلك أن يتصرف كما يحلو له ٠٠ الثروة لم تصل بعد ٠٠ ربما آن المبالغ الوحيدة التى وصلت من هذه البلاد هى ثمن المظروف وورقة مكتوب عليها خطاب يصلنا بين فترتين طويلتين ٠٠ وثمن طابع البريد ٠٠ عشرون رسالة فقط هى التى وصلتنا منذ رحيل الفتى الى هناك ٠٠ لم يعد فتى الآن ٠٠ لقد تزوج ٠٠ وأصبح أبا ٠٠ يعيش كما روى لنا فى احدى خطاباته الأخيرة فى منزل فخم تحيطه المزارع وبعض الحيوانات ٠٠ لم يذكر نوع هذه الحيوانات ٠٠ هل هى مجموعة من الكلاب التى تقوم بحراسة المنزل خوفا من دخول اللصوص الذين يسعون لسرقة الثروة التى سيرسلها يوما الى أهله ؟٠٠ أم هى مجموعة من الفئران تسعى فى المنزل تأكل فيه كما تشاء وتحاول اختراق

الصندوق الكبير الملىء بأوراق البنكنوت ؟· أو لعلها حيوانات أليفة تهوى زوجته تربيتها مثل الكثير من السيدات فى هذه البلاد ؟· أو ربما أبقار ومواشى مثل تلك التى نشاهدها فى الأفلام · ترفل من مكان لآخر ؟ لانعرف لماذا لم يرسل الفتى صور: هذا المنزل ؟ ولماذا لم يرسل صورة واحدة منذ أن رحل ·· لا أعرف هل غيرت السنون الكثير من سمات وجهه أم أنه لايزال يحمل تلك الملامح الفتية التى ارتسمت عليه حين استقل السفينة وهو يكرر وراءَ أمه : «كيف حالك ·· أود أن أعمل ·· شكرا ؟

قال فى أحد خطاباته الأولى انه لم يعثر بعد على عمل يناسبه ·· وانه يقيم باحدى الفنادق الفقيرة ويصرف القليل من النقود الباقية لديه ·· قال فى خطاب آخر انه قد نجح فى الحصول على عمل يمكنه من خلاله أن يدفع ايجار غرفة صغيرة قام بتأجيرها وأنه سيغادر المدينة خلال أسبوع ليلتحق بأحد الأعمال فى مزرعة بعيدة ·· لم يذكر شيئا عن الثروة التى عليه أن يحققها فى الرسائل الخمس الأولى التى أرسلها لأبيه ·· تحياتى لأمى ·· تحياتى لأخى ·· الجو هنا شديد المطر ··

النســاء جميلات ٠ وأحيــانا تأتى احــداهن لترقد فى أحضانى ٠٠ لكن لن أدع أية امرأة تخدعنى ٠٠

قال لأبيه فى أحد رسائله انه سوف يتزوج من فتاة جميلة ٠ يمتلك أبوها أحد المحلات الكبرى فى المدينة ٠٠ تعمل فى المزرعة كعاملة عادية ٠٠ يخرجان معا ٠ تأكد أبى عندما وصلته رسالة ابنه أن ولده قد تزوج فعلا ٠٠ أخفى الرسالة عن زوجته بضعة أيام قبل أن تقول :

ـ أرسلناه ليأتى بالمال فاذا به يتزوج من فتاة من أهل البلاد ٠٠

قال الزوج :

ـ أعتقد أن مافعله شيئا طيبا ٠٠ ســوف يجد له أهلا جددا يقونه وحشة الغــربة ٠٠ ضحكت المرأة على سذاجة زوجها وقالت :

ـ بدلا من أن يرسل لنا الأموال سيكتبها باسم ابن له وسنعيش أبدا فى فقر ٠٠

لم يذكر الفتى عبارة واحدة فى كل رسائله حتى الآن عن الثروة ٠٠ ومدى ماحقق منها ٠ فى أول الأمر

تعال أن على الفتى أن يكون نفسه وأنه لاينتظر منــه شيئا ٠٠ ثم قال انه يتعرض هناك لأزمات ولكنى حتما سيجتازها ٠

عندما تزوج الفتى كتب لأبيه لأول مرة أن الزواج مكلف جدا فى تلك البلاد «أنا هنا أحاول أن أنشىء نسلا جديدا باسمك ٠ هذا النسل من الأبناء سأجعلهم يكبرون ويتعلمون ويعملون فى كل البلاد ويتزوجون ٠٠ كل منهم يتزوج امــرأة من جنســية مختلفة كى يكون لك أبناء وأحفاد فى كافة أقطاب الأرض ٠٠ سوف يحققون الثروات التى تسعى الى تحقيقها ٠٠ لاتقلق ياأبت ٠٠ سوف تصلك الثروة يوما ٠٠ طيلة العمر تبلغ الأمل ٠٠ ولا تنس أن الزواج نصف الدين» ٠

نظر أبى الى جثمان زوجته قبل أن يضعونها فى القبر وبكى ٠٠ يحمل فى يده رسالة بها أوراق عديدة أرسلها ابنه فى الصباح ٠٠ بعد رحيل الأم بعدة ساعات ٠٠ ممدة فى سريرها الجديد وحولها بعض النسوة يغسلن جسدها قبل أن يلفونها بآخر أثوابها حين قرع الباب ليدخل الساعى حاملا رسالة قادمة من الجانب الآخر من البحر ٠٠ بالرغم من الدموع الشديدة التى انسابت من الرجل الا أنه فتح الرسالة على عجل ٠٠ تصور المسكين

أن الفتى قد عرف بمرض أمه وانه قد أرسل مجموعة من الشيكات كجـزء أول من الثروة ·· شـعر الرجل بالارتياح قبل أن يفض الرسالة ثم مالبث أن رجعت اليه كآبته وهو يقـرأها ·· تحـدث الفتى عن مولوده الجديد وكيف أن وفود ابن جديد الى الدنيا يكلف الكثير من النقود فى البلاد التى يعيش فيهـا ·· بينما يبكى الرجل زوجته والمشيعون يضعون جثمانها فى القبر · طوى الرسالة التى فى يده وألقاها فى جوف المقبرة قبل أن يسدها الحانوتى بالطوب والأتربة ·

لم يشعر رجل بألم لوفاة زوجته ـ أو هكذا خيل لى ـ قدر ماشعر أبى بعد وفاة أمى ·· أصبحت الشقة أكثر اتساعا ·· خيل له أنه يعيش فى صحراء ·· كان يسمع الصدى يطرق كل مكان بكل عبارة ينطقها ·· جلس فى غرفته يقرأ القرآن ويقيم الصـلوات ·· لم يفكر أن يكتب لابنه عن رحيل أمه · قمت للمرة الأولى بالكتابة الى الفتى · كتبت عبارات أكثر وضوحا :

«ليس من الانسانية أن تترك أباك يتعذب ويتألم ويعيش على أمل أن ترسل أنت وزوجتك مبلغا من المال مهما كانت قيمته · انه يسميها «ثروة» ·· ويشعر أنك لو أرسلت أقل قدر من هذه الثروة لاستطعت أن تعيد

اليه بعض الأمل ‥ لكنك لم ترسل ولم تذكر شيئا عن أحوالك المادية لنا نحن في انتظارك ٠ أمك تحييك من قبرها »

لم أكتب عن أمه سوى هـذه العبـارة القصيرة ٠ جاءتنى رسالة سريعة شرح فيها كل ظروفه التى عاشها منذ أن رحل :

« عندما سافرت تركتك فى المنزل طفـلا صـغيرا لاتدرك المسؤولية ٠ ولم أكن أفهم كثيرا لماذا يرسلنى أبى الى هذه البلاد ٠ انهم هنا يحتاجون أقوام أشـداء ليعملوا ولايكسبون ‥ وأنت تعرف أننى لست قوى البنية ولا شديد الذكاء ‥ واننى جئت هنا كى أتحول الى ابرة صغيرة وسط مصانع هائلة ‥ وعلى بعد ذلك أن أرسل لأبيك مبلغا كبيرا ‥ ربما كميات من الذهب تكفى سفينة ضخمة لحملها ‥ واكتشفت أن الأمر ليس سهلا فى أول الامر ‥ على أن آكل وأشرب لأعمل طيلة النهار وأنام ليـلا مثل الدجاجات المذبوحة ٠ والأيام لاتمر والنقود لاتزداد ‥ ورسائل أبيك تجيئنى وتحثنى ‥ لكن ماذا تفعل الرسائل وسط مجتمع لايعطيك أموالا الا بقدر ماتعمل ؟٠ يقولون هنا ان أصحاب الثروات ـ كما قال أبوك ـ هم فعلا الذين بدأوا فقراء ٠ لكن

لو أن أباك نفسه قد جاء هنــا لمل المعيشــة وفكر فى العودة ·· و ·· مع ذلك ادخرت مبلغا كبيرا ·· أقرب الى ثروة يريد أبوك أن أرسلها له ·· وجدت هذا بعد ثمان سنوات من رحيلى ·· لكننى تتصور أن عملية سطو مسلح قد سلبت منى هذا المبلغ بسرعة البرق ·· ولم أتمكن من الكتابة ·· لا لأبيك ولا لأمك ·· ولا حتى لك لأنك كنت صغيرا ·· أما الآن فالأمور تغيرت ·· كان بودى أن أرسل لك مبلغا تنتهى به دراستك الجامعية وكى يمكنك أن تحضر هنا لأزوجك امرأة قشدة مثل زوجتى ·· لكن أمك ماتت ·· وأبوك يعيش وحده ·· وهذا حافز جيد كى أرسل لك الأموال التى تطلبها ·· لاتيأس ·· سوف تصلكم النقود يوما ··» ·

وصلت الرسالة بعد رحيل أمى بأربعين يوما ·· تنهد الرجل وهو يقرأها ·· شعرت لأول مرة بفتور فى عينيه وأنا أحدثه عن الثروة · قال :

ـ لقد انتهيت من دراستك وربمــا سيكون لهــذه الثروة التى ستصل يوما معنى رائع لديك ·· أما أنا فقد دفنت ثروتى كلها يوم أن ماتت أمك ·

بكى الرجل ليلتها بحرقة كما يفعل كل ليلة بعد أن

أنام ‥ أو بعد أن أحاول أن أوهمه أنني نمت ‥ وضع صورة زوجته الكبيرة فى الحجرة أمامه • يظل يرقبها طيلة وقته ‥ يكتب أحيانا كلمات غزل كأنه قد التقاها فى مقبرتها ‥ أجبرته يوما أن يخرج معى الى دور السينما • قلت له ونحن نشاهد امرأة تتعرى فى الفيلم :

ـ ابنك الآن ينام مع امرآته كالقشدة • سوف يرسل لى احداهن ‥

لم يضحك الا عندما قلت له :

ـ سأبعث له أن يرسل لك أنت الآخر واحدة • فليس هناك أحد أفضل من الآخر ‥

لكزني بشدة وقال :

ـ يالك من وغد !!

كتبت من جديد رسالة لأخى ‥ قلت اننى أنوى أن أتزوج ‥ فتاة جميلة كانت تزاملنى أثناء الدراسة ‥ ويمكننا ونحن الاثنان خريجان من كلية التجارة أن نجيد استثمار الأموال التى سيرسلها • قلت ان أباك سعيد جدا بالفتاة وانها قامت بزيارتنا أكثر من مرة •

وانه قال يومهـا : انت فارس كأبيك • اخترت غـزالا أشبه بأمك •• قلت له ان خطيبتى أجمل فلكزنى بشدة فى جنبى وقال غاضبا :

ـ هل لاننى جاملتك تسوقها •• لم تكن هناك امرأة أجمل من أمك ••

عندما وصلنى رد من أخى يهنئنى باختيارى الطيب •• كانت بطن زوجتى قد تكورت قليـلا الى الأمام •• ظل أبى فى غـرفته لايبرحها وأعـددت زوجتى نفس الغرفة التى أعيش بها بعد أن رحل أخى وتحولت الى غرفة نوم للعروسين •• قلت لزوجتى ليلة زفافنا •

ـ يسـعى أبى الى أن يكون امبراطـورية •• مال وبنون •• المال فى الطريق •• فلنأت له بأحسن البنين •• تناكحنا بشدة طيلة الليل دون أن يصيبنا التعب •• دخل الرجل علينا بالفطور سألنى مداعبا :

ـ هل تصرفت جيداً كى تأتى بولىّ العهد ••؟

أرسلت رسالة عبر البحار أتحدث فيها عن التطورات الأخيرة فى الأسرة • جاءنى الرد بعد أن رزقنـا بأول فتاة يتحدث فيها أخى عن ظروفه الأخيرة :

لقد منيت بالفشل الشديد فى تجارة اشتركت بها أخيرا ·· خسرت جزءا كبيرا من نقودى ·· كنت أنوى أن أرسل لكم عائد هذا المبلغ · لكن يبدو أن السماء لاتود اسعاد أبى الآن ·· بلغه تحياتى وقبلاتى ·· ورائى التزامات كبيرة من أجل ولدى وزوجتى ·· الأسرة تحييك» ·

قال الرجل :

ـ يبدو أن أخاك يهتم بنفسه أكثر · لاتحدثه عن أية نقود بعد ذلك ·· فليرزقنا الله ··

وصف أخى فى خطابه الطويل كيف يعيش وأن على أن أرحل اليه · فسوف تغدق الأموال على كثيرا اذا فكرت فى السفر اليه ··» تعال عامين فقط وستعود ثريا ·· لم أشأ أن أجعل أبى يقرأ الخطاب حتى لايتضايق ·· بدى أنه قد فقد بعض الأمل فى وصول شىء من ابنه ·· قال لزوجته يوما :

ـ كنت أتمنى أن تنجبين غلاما كى يسافر ليعوضنا جحود عمه ·

قالت زوجتى :

ـ نحن لاينقصنا شيء ٠٠ دخلنا يكفينا ولا نود سوى أن يلتئم شمل الأسرة !

فى الصيف الثانى لحضور الفتاة الى المنزل ذهبنا الى الشاطىء لأول مرة بعد وفاة أمى ٠٠ تمددت زوجتى مرتدية لباس بحرها فوق الرمال وأخذت تقرأ كتابا ٠٠ بينما كنت أسبح فى المياه ٠٠ جلس أبى على حافة الشاطىء يرقب البحر من بعيد ٠٠ لم يحدثنى هذه المرة فى ماذا يفكر ٠٠ لعله كان يرى أمى هى التى تقرأ الكتاب ٠٠ لكنه كان يوليها ظهره ٠٠ خيل لى أن عيونه ترى على بعد مسافات لاتصل عيوننا الى رؤية مثيلتها ٠٠ عند الغذاء تنهد مبتئسا ولم يتكلم كعادته ٠٠ لم أود أن أسأله عما به ٠٠

بعد أن عدنا من الاجازة وجدت رسالة تنتظرنى ٠٠ قال أخى أن رسالة رقيقة قد وصلته مجهولة المصدر وان كاتبها يعتب عليه عتابا شديدا أنه لم يقم حتى الآن بأية واجب تجاه أبيه وأسرته ٠٠ وانه قد مضى أكثر من ثمانية عشر عاما على رحيلة ولم يرسل وريقة واحدة ٠٠ أو صندوقا صغيرا به بعض الذهب والفضة ٠٠ وانه قد حان الوقت الآن كى ينتبه الى أنه قد أصبح يعيش فى استقرار وأن عليه أن يرسل صندوقين على الأقل

باسم أبيه .. قال آخى انه لايعرف من كتب هذه الرسالة ... ليس الخط لأبيه ولا لى .. ولم يحدث أن استلم رسالة من أى مكان بها نفس التعبيرات .. وقال انه لن يهمه من كتبها انما المخطوطة بها الكثير من الصدق .. ولقد شرحت لك من قبل عدة مرات الظروف التى مرت بى .. والآن لن أكذب عليك .. ولن أماطلكم .. لقد فكرت مليا أننى يجب أن أرسل مبلغا كبيرا للغاية اليكم حتى ولو لم يكن هناك أحد يحتاج الى أموال أو ثروات .. لكن على الأقل لأن سبب رحيلى كان هو تحقيق الثروة .. واذا كنت قد حققت بعض المبالغ الكبيرة .. الا أنها ليست بالقدر بالغة الضخامة بالصورة التى كان يصورها لى أبى .. لقد أخذنى يوما الى مطحن كبير وقال لى :

ـ هل ترى الدقيق الذى ينسال فى هذه الصوامع ؟ . عليك أن تحقق ثروات تنسال بنفس الطريقة .. وربما ان أبى كان يبالغ لكننى لن أنسى قط الدقيق وهو ينسال ذهبى اللون له بريق لامع . أحس الآن بعد كل هـذه السنوات الطويلة التى عشتها هنا اننى لايمكن أن أملىء غرفة واحدة بتراب الذهب .. أو بالفضة كما حاول أبوك أن يصور لى .. هنا يمكنك أن تكسب وتعيش .. لكن ليس كل البشر يمدون أياديهم الى رمال الصحراء

فتتحول الى ذهب وفضة ·· أو أوراق بنكنوت ·· وقد حاولت أن أجمع مبلغا كبيرا نوعا ما ــ يسمى عند أبيك ثروة ــ كى أرسله باحدى أساليبى اليه فقابلت عدة صعوبات ·· بعض الكساد فى بضاعتى يوما · تشاجرت زوجتى معى وقالت ان ليس من حقى أن أرسل كل هذه المبالغ · ولدنا فى حاجة اليهما مثل حاجة أبيك وأخيك وأسرته ·· ولذا فاننى الآن أكون كمية جديدة فى صمت شديد وتكتم ·· وسوف أرسلها باسمك أنت يوما ·· وتصرف بها كما تريد ·· لاتقلق فسوف أسعى الى أن تصلك الثروة قبل عدة أشهر ··

قال أبى انه لم يرسل لابنه أية رسالة يحدثه فيها عن النقود منذ أن رحلت أمى · وانه لم يعد يسعى كثيرا الى تكوين أية أموال «لقد ضاعت الثروة الوحيدة يوم ان ·· أمك» ·· قالت زوجتى انها لايمكنها بالطبع أن ترسل رسالة الى أخى دون علم منى أو حتى من حميها ·· لم نهتم كثيرا ــ لفترة ــ بمن أرسل الرسالة ·· لكن شعورا عاما بالارتياح ساد المنزل لعدة أشهر ·· فلأول مرة نشعر جميعا أن الثروة ستصل فعلا ··

الفصل الرابع :

« أخوك مات ·· البقيــة فى حيــاتكم · سيصلكم جثمانه على السفينة الراسية على ميناءكم صباح الجمعة القادم · فى تابوت وضعنا به عدة حقائب وصندوقين حسب وصية المرحوم · عزاؤنا عــزاءكم» ·· زوجــة أخيك ·

نظــرت الى زوجتى وأنا لا أعــرف هــل أبكى أم أضحك · لم أره منذ ثلاثين عاما ·· منذ أن رحل ·· لم أر له صورة واحدة غير تلك الصورة المعلقة فى الصالة الصغيرة وقد بدت على صاحبها علامات البلاهة ·· لقد مات أخى الوحيد · لم يعد لى أخ آخر لكن جثمانه سيصل وبرفقته الحقائب المليئة بالذهب والثروة التى وعدنا أن يرسلها منذ أعوام · لقد تحقق حلم أبوه أخيرا · لكن لا أعرف هل سيبكى أم سيضحك ؟

قالت زوجتى :

ـ انه جالس يصلى فى غرفته ٠٠ اعطنى البرقية وسأتصرف ٠

دخلنـا الى الرجـل الذى نظـر الينـا بشىء من الارتياب ٠ قبلته زوجتى بحنان فقال :

ـ خيرا ٠٠ فى يدك وريقة لعـل بهـا أخبار عن أخيك ٠٠

قلت وأنا حاول مغالبة أحزان ما فى داخلى :

ـ ولماذا عنه ؟

قال :

ـ لانه أرسل برقية من قبل !!

أخذ البرقية ٠٠ قرأها بسرعة ثم طواها وبكى ٠٠ بكيت معه ٠٠ لا أعرف هل مشاركة منى لمشاعره أم لأن أخى الفتى قد رحل ؟٠ أو ربما حدادا على أيام الفقر؟٠ بكت زوجتى بحرقة أكثر ٠٠ ليس حزنا على صـاحب الصورة المعلقة فى الصالة ولكن لأن العجوز قد فقد ابنا ٠٠ وهى تحب أبنائها بشدة وترى نفسها مكانه ٠٠

انتظرنا يوم الجمعة ٠٠ عادت الاشياء الى مجاريها ٠٠ بدى أبى راضيا أن ابنـه قد أوصى بدفن جثمـانه

فى أرض اجداده ٠٠ الدماء لاتتحول قط الى مياه ٠٠ لقد جاء بجثمانه وثروته ٠٠ تحدثنا ثلاثتنا كثيرا عما سنفعله بعـد وصـول الثروة ٠ «سـوف نبنى مقبرة رائعه تكريما لاخيكم ٠ » ثم سنشترى قطعة من الارض نبنى فوقها منزلا ضخما ذا حديقة ٠ يحـوطها سـور مسيج بالأشواك وعليه حراس مسلحون كى نعيش فى سلام بعيدا عن البشر ٠٠ سنعيش فى عالم أشبه بذلك الذى حدثنا عنه يوما فى أحد خطاباته ٠٠ لقد صبرنا كثيرا وعلينا أن نحقق ما نتمناه ٠

فى يوم الجمعة ذهبنا الى الميناء كى نستقبل الجثمان والحقائب ٠٠ قالوا ان السـفينة ستصل عنـد منتصف النهار ٠٠

ذهب ابى للصلاة وعنـدما عـاد وجدنى اتحدث بغضب مع موظف التخليص الجمركى ٠ قال الرجل انه لم يستلم شيئا يدل ان هناك جثمانا وحقائب بـداخل تابوت ٠٠ ذهل الرجل وهو يشاركنى غضبى ٠٠ اشار الى البرقية والبوليصة التى استخرجناها لاستلام الجثة ٠٠ قال ان علينا ان نحادث المسـؤول عن السفينة فى ذلك ٠

رجل انيق جاء وحيانا وعلى شفتيه ابتسامة باهتة قال :

ـ البقية فى حياتكم · نأسف لما حـدث للسفينة ولابنكم ··

كظمت غيظا شديدا نحوه وأنا أساله ماذا يقصد · قال :

ـ تعرضت السفينة للغرق اكثر من ثلاث مرات ·· لقد سمعتم عن تلك العواصف الشـديدة التى تحتـاج كل مكان ·· نحن في مواسم الاعاصير ونحمد الله على وصولنا بالسلامة ·· قضينا ليال حالكة وكدنا أن نهلك ·· تمايلت السفينة على أكثر من جانب ·· العوبة ·· لقد كتبت كل هذا فى تقريرى الذى سأقدمه للمسئولين · لم نفقد تابوت ابنكم فقط ·· فقدنا أشياء كثيرة ·· الحمد لله الأرواح بخير كلها وهذا أهم شىء · أيوجـد شىء أغلى ثمنا من البشر ؟· عندما يتعرض المرء للموت فان مايفكر فيه هو روحـه لا مايملكه ·· قام البحارة بالتخلص من أكثر أشياء السفينة ولأن الاحياء خير من الموتى فقد تم التخلص من التابوت ·· ثم اننا كبحارة كثيرا مانفضل أن ندفن فى مياه البحر ··

سأل أبى :

ــ والحقائب ٠٠؟

رد الرجل والابتسامة الباهتة لاتفارقه :

ــ لاأعرف ٠٠ أعتقد أن كل شىء قد ضاع !!

بدونا جميعا فى حال يرثى له ٠٠ قال العجوز :

ــ انها ثروة ٠٠ أنت لاتعرف ٠٠

قال البحار :

ــ أنا أعرف ان أى شىء من طــرف ابنكم المتوفى يعتبر ثروة ٠٠

قاطعه أبى غاضبا :

ــ انها ثروة ٠ ذهب ٠ كل الأمــوال التى ادخرها الفتى طيلة ثلاثين عاما ٠٠

أخذ أبى يسب ويلعن فى البحر ٠٠ وفى كل من حوله ٠٠ حاول الجميع تهدئته ٠٠ بكى ٠ لم يصله شىء مما تمنى ٠٠ ضاعت جثة ابنه فى البحر وضاعت نقوده ٠٠ لكن فجأة قال ان البحارة سرقوا الأموال وادعو أن هناك عواصفا كادت أن تقلب السفينة ٠٠ قال انه سوف

يرفع شكوى الى الوزير بل الى رئيس الوزراء ·· بل الى الرئيس نفسه ·· سيرفع قضيته الى المسؤولين وسيحاول أن يخرب بيوتهم أولاد الزانيات ·· سيعلمهم كيف يوقفون العواصف وأن يحافظوا على الموتى قبل أن يولدوا ·

عاد الرجل مع ابنه وزوجته الى المنزل وقد أصابه الاعياء فنام يحلم بابنه يستيقظ من رقدته الأخيرة كى يطلب النجدة من غرق يصيبه · هب الرجل مذعورا من نومه وقام ليبكى ابنه ·· لم يعد يذكر الثروة مثلما فعل ليلة أمس · لكنه تذكر أن دفن ابنه فى مقبرة صغيرة بالقرب منه أفضل من ذلك القصر الذى عليه أن يعيش فيه ويحيطه سياج بأشواك وتحرسه مجموعة من الحرس المسلحين · قال لزوجتى وهى تقدم له فنجان القهوة :

ـ لقد حدثتكم دائما أن المال والبنون هما زينة الحياة الدنيا ·· وأنا لم يعد لى مال ·· ولا بنون ··

قالت زوجتى :

ـ نحن مالك وبنوك ·· وهناك أحفادك على الطرف الآخر من البحر سوف تتصل بهم دائما ·· ظل يحلم

لعدة أيام ويحدثنا كيف دخل البحارة الى الغرفة التى بها التابوت وأخذوا يعيثون فى المكان فسادا أخرجوا الجثة وألقوا بها فى المياه وجلسوا يقتسمون الثروة . أولاد الغوانى سيبنون قصورا كبيرة تحيطها أسوار شائكة وحولها حرس .. لقد حصلوا على ثروة تكفى لكل منهم أن يتحول الى ثرى هو وثلاثة أجيال من أحفاده .. كان يجب تفتيش البحارة وهم خارجين من الأبواب .. الذهب فى حقائبهم .. هذا الرجل ذو الابتسامة الباهتة أخذ نصيب الأسد .. يجب أن نطارده ونعرف أين وضع الحقائب .. لقد أكل السمك ابنى وأكل البحارة النقود .. وأكلنى الزمن انتظارا للثروة التى يبدوا أنها لن تصل أبدا ..

قالت زوجتى :

ـ ربما انها ليست السفينة وأن زوجة أخيك كانت ذكية فأرسلت الحقائب فى سفينة أخرى داخل تابوت آخر ..

حاولت فى تلك الأمسية الاتصال بزوجة أخى على الهاتف فلم أستطيع .. كتبت لها برقية وخطاب .. هل

كان بالحقائب أشياء مشبوهة ؟ أموال مثلا ٠٠ أو مخدرات ٠٠ فربما أن أخى قد فكر آن ثمن الكيلو من الذهب يعادل ثمن الكيلو من الأفيون أو أى نوع آخر من المخدرات ولعله أرسل أوراق بنكنوت ٠٠ حدثينى ان كنت قد رأيت مابداخل هذه الحقائب ٠٠

قلت لأبى ان زوجتى ترى أننا يمكن ابلاغ الشرطة ورفع دعوى على أصحاب السفينة وأننا يجب آن نرسل الى زوجة أخى أن تفعل ذلك أيضا ٠٠ فهى التى قامت بشحن التابوت ٠٠

فى مساء اليوم التالى ذهبت مع أبى وزوجتى الى المحامى ٠ زميل زوجتى فى الدراسة يوما ٠٠٠ بعد أن حكينا له الموضوع قال لو ان الوقائع التى ذكرها الربان صادقة فلن نحصل على شىء وانـنـا لو ذكرنا أن هنـاك حقائب مليئة بالنقود أو الذهب داخل التابوت فسوف يجر هـذا علينا وعلى زوجته الكثير من المشـاكل وذلك بتهمة التهريب ٠٠ قال أبى غاضبا :

ـ نحن نريد تعويضا عن ثروتنا التى ضاعت ٠٠ جثة ابنى لاتهم أحد عداى ولن يدفعوا عن دفنها فى البحر تعويضا ٠

قال المحامي ان من الأفضل ألا نرفع أية دعوى وأن نعالج الأمر سلميا ٠

ابتسم الربان وهو يحيينا ٠٠ يرتدى ملابسا خفيفة بالرغم من البرد ٠٠ حاول أبى محادثته بأعصاب هادئة بينما لم تخفت الابتسامة الباهتة من فوق شفتيه ٠ قال انه جد آسف على ماحدث لنا ٠٠

قال أبى انه جاء اليه فى فندقه الذى ينزل به كى يطلب منه طلبا غريبا :

ـ ابنى غالى جـدا على ٠٠ لو أنزلتم مجموعة من البحـارة فى نفس الأماكن التى ألقى بهـا التـابوت والتقطوه فسوف أدفع لكم مبلغا كبيرا ٠٠

قال البحار :

ـ هذه ليست مهمتنا ياسيدى ٠٠ نحن سفينة نقل ٠٠ ولا أعرف كيف وافق المسؤولون على نقل تابوت فى سفينة ركاب ٠٠ هذه جريمة !!

عندما لم يجد أبى بدا من ذكر الحقيقة قالها للرجل ٠٠ فقال بمنتهى البرود :

ـ الأسماك التى تأكل مخلفات السفن لاتفرق بين

الذهب واللحم ·· وخاصة الأسماك الكبيرة ·· ألم تر مثل هذا فى أفلام السينما ؟

أحسست أن أبي يود أن ينفجر غاضبا فى وجه الرجل الباهت الابتسامة ·· شكره وهو يمد له أصابعه ونزل يسبقني بينما حاولت أن أخبر البحارة أننى أتمنى ألا تتكرر مثل حوادث الاهمال فى سفينته مرة أخرى ·· قال مداعبا :

ـ تعال معي والتقط الذهب كما تشاء فربما يمكنك به شراء سفينة مثل سفينتنا ثم تغرق فى ثوان نحن نحمد الله أننا الآن فوق الأرض ··

قبل أن يغلق باب غرفته بالفندق قال وقد أخفى تماما ابتسامته الباهتة :

ـ ياسيد ، أنت لاتعرف كم من سفن تعانى الآن فى البحار متاعب أو مصاعب ··

وصلتنا برقية من زوجة أبى :

«كم آسف ألا يصلكم جثمان زوجى ·· مسكين كم كان يتمنى أن يدفن جثمانه فى بلاده» ··

قالت فى خطابها الطويل : «صراحة أنا لا أعرف

ماذا كان يوجد فى تلك الصناديق ٠٠ لا أجزم أنها نقود ٠٠ أو ذهب ٠٠ أو حتى أشياء ممنوعة ٠٠ لكن اكتشفت فقط منذ اسبوعين أن أخاكم قد سحب أكثر من ثلاثة أرباع ثروته من البنوك ٠٠ التى يضع فيها حساباته قبل وفاته بعدة أسابيع ٠٠ كان المسكين يشعر بدنو أجله ٠٠ أؤكد لكم أن الحقائب ملئت بالثروة التى طالما حدثكم عنها المرحوم ٠ لكن لا أعرف بالضبط فى أية صورة ٠٠

قال أبى ان زوجة أخى ماكرة وانها لم ترسل الثروة داخل التابوت «أتذكر يوم أن كتب أخوك أن امرأته تحرضه ألا يرسل شيئا وأن بيته أولى ؟» ٠٠ قالت زوجتي ان المحامى قد ذكر هذا الأمر أثناء حديثنا معه ٠٠ قلت لأبى ان علينا أن نتحرى الأمر فلا نظلم أحدا ٠٠ أتذكر أن البحار لم يؤكد أنه قد رأى تابوتا فى السفينة ٠٠ وأنه لم يسمع البحارة يتحدثون عن قذف تابوت ٠ لكن كل شىء قابل للتصديق ابان هبوب العواصف وسط المياه ٠٠ يمكنك أن ترى المئات من التوابيت ٠٠ وتتحول أشياء كثيرة الى أشياء مضادة ٠ قال أبى :

ـ اذن المرأة لم ترسل النقود ٠٠ كيف عرفت انها

ثلاثة أرباع ثروة زوجها .. لقد حسبت وعدت كان يجب أن يتزوج أخوك بامرأة من هنا وليس من وراء البحار ..

كتبت المرأة ردا طويلا على رسالة مقتضبة كتبتها :

« لن أقول ان زوجى قد ظلمنى حين كتب لكم ذلك .. لقد كان يدعى دائما أنه فقير .. وكنت أعرف انه يكسب ويجب أن يقيم أعباء المنزل ثم يدخر مايشاء .. لكنه لم يكن يسمع ما أقول .. وقد فوجئت به يحدثنى قبل وفاته بأيام برغبته أن يرسل الحقائب الى ذويه .. سوف تحقق هذه الحقائب أحلامهم .. أرسلها اليهم مهما كانت الظروف وبأى ثمن . فهى وصيتى الأخيرة .. وبعد أن ماتفكرت أن الوسيلة الوحيدةأن أرسل الحقائب هى أن أضعها فى تابوته وأرسلها .. فلم يكن ابنك يفكر فى أن يدفن ببلاده . وربما لم يكن يفكر آنه سيموت هكذا سريعا بالرغم أنه كان دائم التحدث حول الموت .. لكن بنيته الضعيفة لم تساعده على مقاومة المرض .. وقد فكرت هذه الفكرة كى أعلم أبنائى أن عليهم أن يتصلوا بجدهم وعمهم وأن يفكروا يوما فى السفر اليهم وقضاء فترة ما معهم ومحاولة تعلم لغتهم

التى كاد أبوهم أن ينساها ٠٠ أنت لى أب ٠٠ وليس لى بعد وفاة ابنكم سواكم قبلاتى الحارة ٠٠

بكى الرجل من جديد ٠٠ قال :

ـ لقد ظلمنا المرأة ٠٠ علينا أن نعتذر لها ٠

بدأت الرسائل تجد لها عجلة أسرع دورانا من تلك التى بيننا وبين أخى ٠٠ كُتِبت رسائل الينا جميعا ٠٠ الى زوجتى ٠٠ وابنتى ٠٠ وطفلتى الصغيرة ٠٠ أرسلت لى برقية منذ عدة أسابيع تهنئنى بعيد ميلادى الأربعين ٠٠ قالت يوما فى احدى رسائلها انها تحتفظ بأشياء كثيرة كان يدونها زوجها حولنا ٠٠ تواريخ ميلادنا وصورنا ٠٠ والخطابات التى نكتبها لها ٠٠ قالت فى رسالة أخرى انها تشم رائحة زوجها فينا أكثر من أبنائها ٠

حدثنى أبى أن الله عوضه الكثير بزوجتى ولديه ٠٠ «كنت أخاف أن تنقطع الصلة بيننا وبين نسل أخيكم بعد مماته ٠٠ لكن وجود علاقة بين هذه السيدة الفاضلة وولديها وبيننا يجعلنى أشعر أن وجودهم فى حد ذاته يعد ثروة طيبة» ٠

قال ان امرأتى أيضا سيدة فاضلة وانها لم تحاول

مضايقته طوال الأعوام التى عاشتها معنا فى المنزل وانها أنجبت أبناء طيبين وأذكياء ·· وأنجبت زوجتك فتاة حسناء ·· وطفلين ستعمل على ترحيل أحدهما يوما الى ماوراء البحار كى يأتى لنا بأشياء لم تصل حتى الآن» ·

فى الاسبوع الماضى بلغت حدة السعادة التى شعر بها أبى مبلغا لم نره من قبل · عندما وصلتنا من جديد رسالة عبر البحار كتبتها أرملة أخى بنفس أسلوب الحب الذى بدى فى كل رسائلها «الى أبى الحنون الذى أتوق لرؤيته ·· أحب أن أطمأنك أن ابنك لم يدفن فى البحر · فأنا هنا بمثابة ابنك ·· ولانك قمت منذ ثلاثين عاما بالعمل على ترحيله من وطنه الأم الى بلاد بعيدة غريبة كى يحقق لأسرتكم أمانى كبيرة ولأننى امتداد لابنك أنا وأبنائى فقد قررنا أن نعمل على أن نرسل لكم الثروة التى كنتم تطمحون اليها منذ زمن طويل ·· أخيرا · سوف تصلكم الثروة يوما ·· وأقسم لك بروح ابنك اننى سأفعل أو سأحاول أن أفعل طالما أن هناك نبض فى عروقى · وليست المسألة سوى وقت ·· أطال الله فى عمرك» ··

قال أبى ان علينـــا أن نجهــز حقائبنا للنزول الى الشاطىء لمدة شهر ٠٠ فابنى لم يمت بعد ٠٠ لقد دفن فى المياه لكنه انبعث فى روح زوجته التى سترسل لنـــا الثروة يوما ٠٠

الفصل الخامس :

تناولت زوجتى الرسالة منى للمرة الثـانية لتعيد قراءتها ٠٠ مطت شفتيها ٠ تركتنى جانبا وقالت :

ـ سوف يتحمس أبوك كثيرا لهذه الفكرة ٠٠ أما أنا فلست على استعداد أن أتخلى عن ابنتى وألا أراها ثانيا كما فعل أبوك بابنه حتى لو كان ذلك مقابل كل ثروة الدنيا ٠٠

قلت :

ـ ولا أنا ٠٠ لست جاد التفكير فى الثروة مثـل أبى ٠٠ أنا فى سن على أن أسـتريح فيه لا أن أرسـل أبنائى عبر البحار ليعودوا فى توابيت تأكلها الأسماك ٠٠ لقد رحل أخى ولم يحقق شيئا لنا على الأقل الآن ٠٠ أربعون عاما ننتظر وصول ثروة لم تتحقق حتى الآن ٠٠ لو أننا وفرنا قرشـا كل يوم منـذ خمسين عاما لأصبح لدينا ثروة لابأس بها ٠٠ لكن أبى صرف الكثير ٠ وزوجة

أخى بدت كشياطن مريد عندما أوقفت حلم وصـــول الثروة من جديد فكادت أن تحل عقل الرجل ..

قال هذا الرجل :

ـ ألف مبروك ياأولاد .. فكرة طيبـــة .. ولماذا تعترضان ..؟

قالت زوجتى :

ـ هل انتهى الرجال هنا كى أرسل ابنتى عبر البحار لتتزوج ابن عمها ..؟

رد :

ـ أليست هذه هى الطريقة الوحيدة لربط أسرتنا بأبناء عمومتهم . فستصبح زوجة كبيرهم .. ستنجب أولادا .. دعك من النقـــود والثروة . فتى ناجح فى عمله ..

قاطعت أبى :

ـ كم من فتية ناجحين فى أعمـــالهم تقـــدموا لها ورفضت أنت ..

ـ أنا لم أرفض أحـــدا .. هى التى كانت تتعلل بأشياء عديدة ..

قالت الفتاة :

ــ ابن عمي يراسلني منذ أكثر من خمس سنوات ويحدثني بهذه الفكرة • وقد أحببته من خلال ماكتب •• وأنا الذى اقترحت عليه فكرة الزواج وليست أمه •• هذا بالنسبة لى فكرة بائتة ••

أصابتني لوثة من الغضب • كدت أن أهجم عليها لولا أن منعنى الرجل بينما وقفت أمها تحاول ايذاءها مثلى •• قلت صارخا للرجل وحفيدته :

ــ لست مستعدا أن أرسلك لاتعودين •• لا أريد ثروة ولا أى شيء •• أريدكم هنا ••

قالت الفتاة :

ــ لن أذهب هناك لأحقق ثروة لكم •• وانما لانني أحببت ابن عمي وكنت أنتظر أن أنتهى من دراستى ••

قلت لها :

ــ لقد ضحك عليك فى خطاباته انه سيحقق لك مستقبلا باهرا وانك ستقيمين فى قصر كبير وانهم يملكون ثروات فى البنوك ويعيشون حياة رغدة •• هذه الفكرة التى نخرها جدك فيك هى التى جعلتك تحبيه ••

لم ترد ٠٠ قالت أمها أنها لن تقبل بأى حال أن تذهب ابنتها الى بلاد بعيدة ولا تراها ثانيا قاطعتها :

ـ منذ أن سافر عمك لم نره حتي الآن ٠ لم نر له صورة له تشير الى أى سن عمره ٠٠ فقط تلك الصورة التى فى الصالون والتى التقطت له قبل رحيله بعدة أسابيع ٠

قالت ابنتى فى المساء انها تود السفر الى الخارج ٠٠ أن تعرف كيف تجرى الأمور فى العالم :

ـ فى ليلة قضيتها أثناء احدى رحلات الجامعة تعرفت على العديد من الفتيات القادمات من عبر البحر ٠٠ يتحدثن عن بلادهن ٠٠ قلن انه ليس من المشين أن تجوب الفتاة العالم وترى أشياءا جديدة كل يوم ٠٠

بعد فترة قالت :

ـ لن أرحل وحدىَ ياأبت ٠٠ سيكون ابن عمى هناك ٠٠ لقد أرسل توكيلا للزواج منى باسم جده ٠٠ يبدو أنهم كانوا يحبون أخاك كثيرا ٠٠ زوجته تتحدث عنه كثيرا فى خطاباتها ٠٠ ابنه يود شيئا فيه وفاء أبيه ٠٠ والفكرة لابأس بها ٠٠

قلت لها :

ـ أنا لا أودك أن ترحلين لأن أسرة أخي تتلخص في كلمة واحدة .. انهم قوم «فشارون»

قالت :

ـ لنفترض ذلك .. هل يمكنك أن تصفني بالفشر ؟.

هززت رأسي بالنفي .. قالت :

ـ اعطني فرصة أن أسافر وأرسل لكم ماتريدون !

أحسست بالغليان يسرى في رأسي :

ـ ومن قال اننى أريد شيئا ؟. انه جدك المخبول .. الفكرة تدور برأسه منذ أن تزوج بجدتك .. وكل شيء اذا مات بالنسبة له فان فكرة الثروة تعشش في رأسه .. أنا لم أرفض له طلبا .. لكنك ابنتي أنا لا ابنته .. واذا كان قد تحامل وأرسل ابنه وراء البحار .. فأنا أحبك ولا أستطيع أن أفعل ذلك .

قلت لزوجتي :

ـ أنا مقتنع ان الفتاة على حق .. هي حرة فيما تفعل .. لكن يجب ألا أظهر لها اننى غير متشدد خاصة حين تعلم أننا قد لا نراها مرة أخرى ..

نظرت المرأة لى بشىء من الضيق وقالت بغضب لم أعتده فيها :

ـ لقد صهرت بأسرة غير طبيعية . كلهم يحلمون بأشياء لاتتحقق . لقد أعادونى الى عصر الأساطير .. والآن على فتاة منهم أن تذهب ..

كانت الصغيرة قد استعدت منذ فترة طويلة .

ـ أنت تعرف ياأبى أننى أتحدث لغتين بطلاقة .. وأن النقود لم تعد مشكلة .. لن نستدين ثمن تذكرة الطائرة أو السفينة .. فقد أرسل لى ابن عمى تذكرة السفر .. فضلت أن أرحل بالسفينة كى أشعر بمعنى الرحلة فعلا ولأننى كما عودتنى أحب البحر ..

ذهبت مع الفتاة وأمها وجدها الى المحكمة كى نعقد قرانها على ابن عمها بناء على التوكيل الذى أرسله الفتى لجده .. بكت الفتاة ونحن خارجين .. بكت أمها وهى تقبلها .. لم ينقطع الاثنان عن البكاء فى السيارة .. منذ اليوم التالى بدأت تعد عدتها للرحيل .. حقائب تملئها بأشياء عديدة . هدايا لهذا وذاك .. الرسائل لاتنقطع من زوج ابنتى وأمه .. بدأت الفتاة تشعر أنها مقبلة على مرحلة ليست بسيطة كما تصورت فى أول

الأمر ٠٠ لم تنم كثيرا ٠٠ كثيرة البكاء ٠٠ قالت لأمها ذات مساء :

ـ لا أود أن أترككم ٠

قبل أن ترحل بعدة أيام أقامت حفلا بسيطا دعت فيه صديقاتها وزملائها فى الجامعة وجلسوا جميعا يغنون ويرقصون بينما لم تكن الصغيرة فى أحسن حالاتها ٠٠ ترك الحفل أثرا عكسيا داخلها فقد أزادها اكتئابا ٠٠ قالت لجدها :

ـ أنا غبية ٠٠ لا أعرف كيف أترك ماما وأذهب الى قوم غرباء لايعرفوننى ؟٠

قال لها الرجل :

ـ أبوك رجل غبى ٠٠ وأمك متخلفة ٠٠ لقد أفسداك ٠٠ سافرى ومعك سعادتك وهناءك ٠٠

لم تنم الفتاة كثيرا ليلة الرحيل ٠٠ تشعر بمسؤوليات جسام ستقع على عاتقها ٠٠ فى الخامسة من يوم السفر خرجت فى سيارة جدها حيث جيرانها الذين وقفوا فى الشرفات يستودعونها ٠٠ لم تغالب دموعها ٠٠ قالت لى قبل أن تصعد الى السفينة :

ـ لاتتضايق يارجل ٠٠ فسأحاول أن آت بزوجي يوما !٠

ثم عرجت على جدها وقبلته وهى تحاول أن تضحك وقالت :

ـ أما أنت فعليك أن تكون قلقا حتى أرسل لك كل ماتطلب ٠٠ سوف يكون لك أحفاد فى جميع أنحــاء الدنيا ٠٠ ثم صعدت الى السفينة ٠٠

أرسلت أولى رسالاتها بعد عدة أيام من رحيلها ٠٠ كتبت وهى فى عرض البحر :

ـ الرحلة ممتعة للغــاية ٠٠ لم أشــهد مثل هذه الأجواء من قبل ٠٠ بلاد كثيرة حطت فيها سفينتنا ٠٠ كثير من البشر يتجاورون يوميا فى مقصورات النوم ٠٠ يتناولون طعامهم معا ٠٠ يقضون سويا بعض السهرات عالم لم أعتده من قبــل ٠٠ كم أتمنى أن تكونوا معى جميعا ٠٠ البحر صاف ليل نهار ٠٠ لا أعرف كيف مات عمى فى هذا البحر ولا كيف يمكن لهذه المياه الرقيقة الرائعة أن تتحول الى وحش كاسر كمــا قال البحار لى بالأمس ٠

ـ بالأمس مرت السفينة بنفس المكان الذى قيل ان

جثة عمى قد ألقت هناك .. لم أشهد البحر هائجا كما كنت أتصور .. حدثت أحد رفاقى فى الرحلة .. قلت له ان عمى مدفون هناك فى تابوت ملىء بالذهب الذى يمكن أن يشترى سفينة ضخمة كهذه ..

قال رفيقى انه يعرف غواصا بارعا يمكنه أن ينزل الى أعماق المياه ويأتى بأكياس الذهب وأن على أن أدفع له أتعابه .. قال الغواص ان هناك اسطورة تقول ان على بعد كل مائة عقدة فى البحار يوجد صندوق كبير ملىء بالذهب ألقته سفينة يوما . عندما حادثت الربان فى حفل العشاء الذى أقامه لبعض الركاب بالموضوع أجاب وهو يبتسم ابتسامة باهتة :

ـ كثيرا ماسمعت عن مثل هذه الأقاصيص ولم نعد تصدق الكثير منها ..

قالت الفتاة انها قد تعرفت فوق سطح السفينة على فتى يود أن يعمل فى بلاد ماوراء البحار كى يمكنه أن يحقق مستقبلا طيبا .. ضحكت منه وقالت ان جدها يحلم مثله بهذه الأشياء وأن هناك أسباب عديدة تحيل دون وصول الثروة الى الرجل .. قال الفتى :

ـ لو كان جدك هو الذى سافر لتغير الحال كثيرا ..

«سأحاول أن أجعل صديقى هذا يتعرف على زوجى وأن أجعله يعمل فى المزارع الشاسعة التى يملكها ورثة عمى .. ربما سأجعله يعمل معنا فى القصر الواسع الذى تحيطه أسوار شائكة وحوله حرس .. قال الفتى انه مستعد أن يعمل أى شىء .. أن يبدأ حارسا لهذا القصر .. فربما يتمكن يوما من شرائه ..

قال أبى ان هذا الفتى سينجح هناك وسيحقق لنفسه أشياء لم يستطع ابنه أن يفعلها .. كتب الى حفيدته أن تعمل على مساعدة صديقها بأى صورة فهو مكافح «لكن حذار أن يشترى القصر وتصبحون أنتم خدم عنده أو تعملون حرسا على جدرانه» ..

وصلت رسالة من ابنتى لأمها بعد عدة أشهر .. قالت انها تعيش سعيدة .. لم يعجب زوجها كثيرا برفيق رحلتها .. رحل الفتى الى مدينة أخرى ووعدها أن يراسلها .. استقبلتها زوجة عمها بحفاوة .. حماة جميلة .. أكثر شبابا من أمى . طويلة .. رشيقة .. تمارس الرياضة صباحا .. وتذهب الى عملها فى الظهيرة .. وتقيم الكثير من الحفلات الرسمية فى المساء .. ثم تأتى الينا لتحيينا .. نحن لانسكن قصرا فخما .. لكنه سكن جميل مثل كل المساكن التى تحيطنا ..

الأشـياء هنا متوفرة .. وعنـدما تتوافر الأشياء يقل حديث الناس عنهـا .. لايتكلمون كثيرا عن الثروات مثلما يفعل جدى .. ربما لهذا تباطأ عمى فى ارسال الثروة الى أبيه لأنه تصور آن كل العالم يعيش هكذا .. فى أول ليلة مع زوجى قال وهو يقبلنى :

ــ المصنع الصغير الذى نملكه عليه الكثير من الديون .. علينا أن ندفع ديون هذا المصنـع .. وأن نسعى بعد ذلك الى تكوين ثروة يمكننا أن نرسلها الى أبويك وجدك وأن نسعى فقط أن نصنع أبناءا .. ثم أحفادا ..

قالت الفتاة انها وضعت لوحة صغيرة فوق سريرها الصغير «المال والبنون زينة الحيـاة الدنيـا» وقالت ان زوجها قد قام بدوره كاملا كزوج فى أول ليلة لهما معا .. قال جدها بعد أن قرأ الخطاب :

ــ حسنا . أحفادى مثلى سينتجون نسلا رائعا ..

قلت مشيرا الى زوجتى وهى تبتسم :

ــ وأنا .. رجل مثل أبى وسل هذه المرأة ..

فى احدى الليالى الشديدة الحرارة فوجئت بالهاتف يرن .. آلو آلو .. ترنك لسيادتك من وراء البحر . جاءنى صوت ابنتى مليئا بالبهجة .. مشتاقة لرؤيتكم

كثيرا ·· كيف حال ماما ·· وجدو ··؟ أنا حامل فى الشهر الرابع ·· سألد لجدى طفلا جميلا وسأرسلهِ اليه كى يباركه ويعيش معكم فترة كى يتعلم خصالكم الجميلة ·· زوجى يريد أن يحدثك ··

قبل أن أسمع صوت زوج ابنتى جاءنى صوت موظف الهاتف :

ـ نأسف ياسيد ·· لقد انقطع الاتصال تماما ·· سنحاول مرة أخرى ·· ليس لنا يد فى هذا · لانعرف ماذا حدث ··

بدت زوجتى عصبية فقد كانت ترغب فى سماع صوت ابنتها ·· ود أبى آن يسمع صوت حفيده وزوجته وبقية الأفراد ·· حاولنا طيلة الليل أن نجعل موظف الهاتف يعيد الاتصال فلم ننجح ·· فى الليلة التالية ازدادت حدة قلقنا جميعا ·· اتصل بنا بعض الأصدقاء فى أول المساء ·· فى الليلة الثالثة خفت الحدة قليلا ·· بعد عشرين ليلة كنت أنام وقد احتضنت الهاتف بيدى بينما نامت زوجتى ملء جفنيها ·· لكننى لم أسمع صوتا عبر البحار ··

قالت الفتاة فى رسالة لأمها :

« كنا نود أن نسمع أصواتكم ·· حماتى تحييكم ·· هى مريضة بعض الشىء ·· ادعوا لها بالشفاء» ·

قال موظف تليفونات كبير قابلته فى مكتبه :

ـ لايوجد خط مباشر بيننا وبين بلاد ماوراء البحار ·· لم يحدث هذا من قبل · نحن نتصل بالكثير من دول العالم ·· لكن هذه أول مرة ·· لانعرف كيف حدث هذا ·· وليس من الغريب أن يحدث اتصال ثم ينقطع ·· وان كنت أشك أنه قد حدث أية اتصال ·· »

أكدت لى زوجتى أننى لم أكن أحلم وأنها سمعتنى فعلا أحادث ابنتى فى الهاتف ·· قلت للموظف ان ابنتى قد حادثتنى فعلا وأنها قد ذكرت هذا لى فى رسالة لأمها فقال :

ـ هذه ظاهرة التخاطر ·· وأعتقد أنك وابنتك تفكران فى بعضكما كثيرا !

لم تنقطع الفتاة عن الكتابة لنا · تصلنا رسالة اسبوعيا منها ·· تكتب لامها ·· أو لجدها ·· أو لأبيها كتبت يوما رسالة لأخيها تحدثه فيها أنه عليه أن يترك الدراسة وأن يستعد كى يسافر اليها كى يعيش هناك حياة أفضل ·· أموال كثيرة ·· ومدن واسعة نظيفة ··

ونسبة أكثر من المسطحات الخضراء ·· هناك حياة أفضل ·· أناس يضحكون دائما ·· وينفقون الكثير من النقود من أجل متعتهم ·

قال الفتى انه أرسل لأخته رسالة طويلة عاتبها فيها بشدة بأنها أصبحت مثل أبيها وجدها لاتفكر سوى فى الثروات والأمةال والرخاء ·· والرضاء عن النفس هو أصل الثروات وهو الثروة الوحيدة الباقية ·· لقد مات عمى · وذهبت أنت ولم نر منكم شيئا ·· أنا أشعر أنه لم يعد لى أخت ·· فأنا لم أعد أراك ·· وليس فى المنزل الكثير من الصور لك ·· لانعرف عنك سوى ماتكتبيه فى رسائلك ·· وأنت لاتعرفين عن أخبارنا الآن سوى مانكتبه لك سواء الكاذب منها أم الصادق» ·

قلت للفتى أن عليه ألا يكتب مثل هذه الرسائل وأنه يجب أن يكون مجاملا الى أقصى الحدود مع أخته حتى لاتغضب منه ·· حاولت أن أثنيه عن عزمه كى لايبعث الرسالة لكنه قال :

ـ لقد عودتنى أن أقول رأيى بحرية ·· وأنا أختلف كثيرا معكما ··

قلت له :

ـ اذا وصلت الثروة يوما ‥ هل ستغير أفكارك ‥؟

قال ذلك الجاهل :

ـ أنا ثروتى فى الكتب التى أقرأها ‥

قلت :

ـ أنا أعرف أن الثروة لن تصل ‥ لكن أختك تعيش فى بلاد كلها أثرياء وثروات ويمكنها أن ترسل نقودا يوما ما ‥ نتمكن بها من أن نعيش أفضل ‥

مط شفتيه وقال :

ـ أنا هكذا أفضل ‥

فى اليوم التالى لارساله الرسالة جاءتنى برقية من عبر البحار «بدأت أضع أول مبلغ كبير باسمك فى بنك كبير طرفنا ‥ كى يمكننى أن أرسل لك ماتمناه جدى يوما من ثروة» .

الفصل السادس :

وصلت الثروة أخيرا ..

مبلغ كبير يصعب على المرء أن يتصوره .. انتظرنا وصوله خمسين عاما منذ أن ركب أخى سفينة كبيرة عبرت به البحر لم يرسله أخى .. ولا زوجته .. ولا ابنهما..

قالت ابنتى فى خطابها :

ان على أن أذهب الى أقرب فرع للبنك كى أتمكن من صرف الشيك .. قال أبى وهو يجلس على سريره الذى لم يعد يبرحه كثيرا :

ـ أحمد الله أن الفتاة أرسلت المبلغ باسمك . فأنا لاأستطيع أن أخرج لصرفه .. كنا نود أن تشاركنا زوجتك فرحتنا ..

قلت لابنى الذى تخلى عن كل مواقفه البطولية :

ـ سوف تتمكن من أن تتزوج زواجا طيبا .. أجمل فتيات المدينة .. لن نجعلك تنام فى نفس الغرفة التى

تزوج بها جدك ٠٠ سنذهب غدا ٠٠ ونأتى بالأموال ٠ انها كثيرة جدا ولا نعرف كيف يمكننا الاحتفاظ بها ٠

قال أبى :

ـ علينا ألا نحتفظ بها فى الشقة ٠٠ فكل الجيران سيعرفون أن ابنتك أرسلت الثروة ٠٠ ومن الليلة سيحوم اللصوص حول الأبواب ٠٠ البنك أكثر أمانا ٠٠

قال ابنى بشىء من الغطرسة :

ـ من اليوم سوف يحل الخوف فى المنزل بدلا من الأمل ٠٠ كنا نأمل أن تصل الثروة ٠٠ وعندما وصلت بدونا خائفين من أن تسرق أو أن تصاب بما حدث لمثيلتها فى البحر ٠٠ هذا عيب المال ٠٠ لماذا لانصرفه؟٠ لماذا لانبنى جمعيات خيرية ودور عبادة ثم نبنى لأنفسنا القصر الذى تتحدثون عنه ونعيش ؟٠ لماذا نترك الأموال فى البنوك ؟

فى اليوم التالىاصطحبنى ابنى الى البنك ٠٠ قال موظف أن على أن أقابل السيد المدير كى يوافق بنفسه على صرف مثل هذا المبلغ الضخم ٠٠ استقبلنى الرجل بترحاب ٠٠ دعانى الى كوب شاى بعد أن رفض أبنى أن يشرب شيئا ٠٠ قال المدير فى أدب جم للغاية :

ـ هذا المبلغ لم يصل بعد الى بنكنا .. أن نسأل بالتلكس .. ويمكنك أن تسأل فى بنوك المدينة الاخرى ..

صافحنا بأدب وهو يشير من طرف خفى أن بنكه اكثر بنوك المدينة آمنا وان علينا أن نضع النقود فى بنكه ..

قال مدير آخر انه يتمنى أن ينال شرفا عظيما لوصول مثل هذا المبلغ باسم بنكه .. لكن الشيك لم يذكر اسم البنك الذى عليه اعتماد الصرف .. قال :

ـ ليس فى بنكنا كله مثل هذا المبلغ المرسل اليكم من عبر البحار .

فى بنك آخر استقبلنا مديره قائلا :

ـ يجب أن نجرى اتصالا هاتفيا بالبنك المودع فيه حساب أصحاب الثروة كى نطمأن ..

قالت الموظفة ان الاتصال الهاتفى معطل منذ أسابيع مع بلاد ماوراء البحار .. وان الكابل البحرى يجرى اصلاحه من قبل الخبراء الدوليين .. قال الرجل غاضبا ان عليها أن تتصل بالتلكس .. قالت بعد فترة قصيرة

أن التلكس قد عطل أيضا لتوه •• أعطانى المدير الشيك معبرا عن أسفه وطلب منى أن أحضر فى اليوم التالى ••

لاأعرف ما الذى حدث للاتصال بين البنك وبين بلاد ماوراء البحار •• بدى المدير عصبيا للغاية فى الأيام الخمسة التى قمت بزيارته فيها •• كان يرغب أن يقوم بصرف الشيك حتى أودع رصيده فى البنك كحساب جارى •• بدى أبى قلقا وأنا أحدثه بما يجرى •• ابنى ازداد ايمانا أن عليه أن يرافقنى فى كل مرة أذهب فيها الى البنك لأنه المستفيد الأول من النقود الكثيرة التى سنستلمها •• «سأتزوج •• وسأبنى قصرا أعيش فيه مع زوجتى •• وستخصص لجدى غرفة كبيرة •• أما أنت فستعيش فى الجناح الأكبر» •

قال ابنى :

ـ علينا أن نبحث عن بنك آخر •

قال مدير العلاقات العامة :

ـ مثل هذا المبلغ يجب ألا تودعه سيادتكم فى بنك واحد •• عليك أن تضع الشيك فى بنكنا وسنتولى الاتصال ببلاد ماوراء البحار •• لاتقلق •

قال أبى :

ـ انهم يضحكون عليك ·· هات الشيك وسأتولى أنا الاتصال ببعض منّ أعرفه ·

بعد عدة أيام ذهبت الى البنك وتسلمت الشيك ·· قال السيد مدير البنك :

ـ آسف · لم نستطيع معرفة اســم البنك الرئيسى ولا الرقم الكودى والاسم الرمزى ·· عليك آن تسافر الى العاصمة ·

سافرت الى العاصمة فى اليوم التالى مع ابنى ·· المدينة كبيرة ·· لاتعرف أحدا من الناس هنا ·· دخلنا أكبر البنوك ·· استقبلنا المدير ببشاشة ·· طلب لنــا المشروبات وقال ان الأمر لايستدعى آية لون من القلق ·· فقط ساعة واحدة ·· ونصرف الشيك ·· عندما دخل الكثير من الزوار استأذنا كى نجلس فى البهو الكبير ·· جو الفناه فى الفترة الأخيرة ·· زحام ·· ونقود تخرج من هنا لتدخل هناك ·· وجوه تخرج باشة بعد أن استلمت مبالغا قد تكون صغيرة أو كبيرة ·

بعد ساعة جاءنا المدير وقال انه لم يكن يتصور أن الأمر صعب كما حدث :

ـ المبلغ كبير ياسيدى ويجب أن يكون هناك ضمان ·· لايمكنك استلام المبلغ كلية ··

قال ابنى :

ـ نحن نملك شيكا واحدا وليس عدة شيكات ·

أفهمنا الرجل آن عمولة البنك ستكون كبيرة ·· قلت لابنى ونحن نجلس على المقهى المجاورة للبنك اننا يجب أن نعود للمدينة ومعنا النقود ·· واننا يمكن أن ندفع أية عموله يطلبها البنك أو الرجل نفسه ·· عندما عدنا بدى الرجل مرتبكا وكأنه وجد نفسه فى موقف لايحسد عليه ·· قال ببساطة :

ـ الساعة الآن الواحدة ·· والاجراءات فى مثل هذه الحالات تستغرق الكثير من الوقت غدا باذن الله ·· قلت لابنى فى الفندق :

ـ هذا المدير رجل غامض ·· علينا آن نحاذر منه ··؟

اقترح الشاب آن نذهب الى بنك آخر ·· قلت :

ـ هناك مثل كانت جدتك تردده وهو ان عليك أن ترافق الكاذب حتى باب الدار ··

قلت له ونحن نخرج من البنك نلعن هذا المدير :

ـ يبدو أنه يريد عمولة أكبر · علينـا أن نعطيه الشيك بأكمله ليصرفه لنفسه ··

قال الشاب :

ـ نحن أشبه بمن عثر على اللؤلؤة الكبيرة الحجم فلم يجد من يشتريها لارتفاع ثمنها فألقاها فى البحر ·· علينا أن نمزق الشيك :

قلت مازحا :

ـ نعطيه لأقرب شحاذ يقابلنا ··

قال موظف الأمن على باب بنك ونحن خارجين :

ـ أفضل طريقة أن تسافر الى أقرب دولة وأن نصرف الشيك ونحوله الى عملات محلية من هناك ·· كثير من البلاد لاتهتم الا بالعمولات التى تأخذها ··

استخرجت جواز السفر ·· عانيت كثيرا كى أحصل على تأشيرة دخول أقرب دولة ·· قال أبى قبل أن أسافر اننى قد سمعت نصيحة موظف صغير واننى سأدفع ثمن هذه النصيحة يوما ما ·· فلن تسمح السلطات فى أية دولة بتحويل مثل هذا المبلغ الى بلد آخر ·· أكمل :

ـ زوجة أخيك كانت ذكية حين وضعتهم فى التابوت • وأنت أين ستضعهم ••؟

قلت لأبى :

ـ أتعرف انها أول مرة أغادر فيها أرض الوطن•• رحل ابنك فوق سفينة • وابنتى فعلت مثله •• أما أنا سأقل طائرة •• كنت أود أن أسافر لابنتى •• لكن الثروة جعلتنا لانفكر سوى فى كيفية الحصول عليها ••
قال العجوز :

ـ لاتقلق •• سنحاول أن نستغلها جيدا •

قالت خطيبة ابنى انها ستصلى من أجلى كى أتمكن من صرف الشيك •• ودعتنى وهى تقبلنى •• رفعتنى الطائرة الى السماء كى أرى البيوت الصغيرة •• ولأعبر من أعلى أماكن لم أسمع كثيرا عنها •• بعد ساعات قليلة حطت الطائرة فى مدينة لا أعرف عنها سوى اسمها • ولغة أهلها ••

هناك بيوت أشبه ببيوتنا •• وشوارع تسير فيها سيارات • •ونفس الوجوه التى فى مدينتنا لكن لا أجد من يفهم ماأقول •• فى الفندق حاولت المضيفة بشىء من البرود أن تجعلنى أفهم أن الجو سيكون شديد البرودة

أثناء الليل ·· مع ذلك لم أقم ·· وقفت أمام النافذة أرقب النـــاس ينامون ·· تصـــورت أخى فى أول ليلة اغترب فيها ·· وابنتى وهى ترافق صديقتها فى السفينة تخيلت نفسى وأنا أصرف الشـــيك ثم أشـــترى عمارة ضخمة من هذه العمارات التى أمامى وأقوم باخلاء جميع ساكنيها ·· ثم أتزوج نساء المدينة كلها وأنجب الكثير من الابناء ·· ضحكت وأنا أنظر الى صورتى فى المرآة ·· عجوز فى الستين ·· سوف تجرى النساء خلفى من أجل النقود الكثيرة التى سأحملها فى حقائب وأعود بها الى بلادى» ··

فى البنك وجدت موظفا يفهم اللغة التى أجيدها ·· قال ان كل بنك فى أى دولة له فروع فى بلاد أخرى ولايمكن صرف الشيكات الا من هذه الفروع ··

ــ عليك أن تسافر الى المدينة المجاورة ·· فالبنوك الكبرى توجد بالمدن الصغرى فى بلادنا · ركبت قطار الضـــواحى ·· جلست أرقب أشـــياء أراها فى الصحف وبعض الأفلام من وقت لآخر ·· فى الفندق الصغير الذى نزلت به وجدت رجلا يفهم أيضا اللغة التى أجيد التحدث بها ·· قال ان اللصوص هنا كثيرون ·· وأن على أن أعـــود الى العاصـــمة وأن أخفى سر الشيك عن كل من

يقابلنى .. قال رجل فى العاصمة أن صاحب الفندق قد ضحك على وأنه أخذ الكثير من الاكراميات جزاء نصائحه .. وأن على أن أعود الى المدينة الصغيرة وأحاول صرف الشيك . لم أبلغ أحدا بقيمة المبلغ .. لكن مفتش الشرطة قال بلهجة ركيكة :

ـ أعتقد أن بنوكنا ترفض التعامل مع الأجانب بمثل هذه المبالغ .. أنصحك بالعودة الى بلدك ..

قال مدير البنك الوطنى :

ـ اذا كانت بلادكم تسمح بادخال مثل هذا المبلغ اليها .. فبلادنا لاتسمح بخروجه منها .. ولا أعرف كيف يخرج مثل هذا المبلغ من بلاد ماوراء البحار .. عد الى بلادك ولا تضيع وقتك هنا ..

قال المستشار الاقتصادى فى السفارة ان مافعلته كان شيئا غريبا :

ـ ... سيدى . فى بلادنا بنوك كثيرة يمكنها أن تصرف لك الشيك . عد وتصرف جيدا ..

كتب رسالة الى صديق له كى يتولى مساعدتى يعمل فى الخارجية .. عدت الى الفندق وأنا أشعر بالقرف

•• ظللت بالمدينة يومين آخرين أحاول أن أحقق نجاحا
•• لكن طائرة حملتني الى بلادى ••

قال أبى وقد ارتسم اليأس على محياه :

ـ ألم أقل انك لاتجيد التصرف •• لقد أخطأت الفتاة عندما كتبت الشيك باسمك •• كان عليها أن تفعل باسم جدها ••

وصلتنى رسالة أثناء سفرى الذى استغرق اسبوعين من فتاتى تمنيت فيها أن «تكون قد استلمت الثروة وأن تبنى بيوت عبادة ومؤسسات خيرية •• ثم قصرا كبيرا للأسرة كما تحلمون» ••

سطرت ثلاث رسائل الى ماوراء البحار •• واحدة لأرملة أخى •• وأخرى لابنها •• والثالثة لزوجته •• قلت ان الشيك لم يصرف حتى الآن •• لكن هناك موظفا سيتولى مساعدتى فى الخارجية •• قال لى :

ـ لاتقلق • اجراءات بسيطة •• البنوك التى يمكنها أن تصرف هذا الشيك كثيرة فى مدينتنا •

قال موظف صغير فى نافذة البنك الذى رافقنى اليه الرجل :

ـ لقد صرفنا الكثير من هذه الشيكات الواردة من هذا البنك الذى يقع وراء البحـار ٠٠ المسـألة لم تكن تستدعى سفرك وتأخيرك هكذا ٠٠ لكن ٠٠

شعرت بالجزع وهو ينطق بهذه الكلمة ٠٠ أكمل :

ـ المبلغ كبيرا ٠٠ ولهذا ٠٠

ـ على أن أودعه فى بنككم ٠٠

ـ لا ٠٠ أنت حر فهذه أموالك ٠٠ شيك كهذا يجب علينا التأكد من صحة توقيعاته ٠٠

ازدادت نسبة الجزع ٠٠ قلت ببلاهة :

ـ اذن لن اقبض المبلغ الآن ٠٠

ـ لو انك مكانى لعذرتنى ٠٠ انت ترى أن المبلغ كبير ٠٠ مجرد تأكد لا أكثر ٠٠

ـ كم سيستغرق من وقت ؟

ـ ليس أقل من اسبوعين ٠٠

ـ وسأستلم المبلغ بأكمله ٠٠

ـ كما تود وبالعملة التى تريدها ٠٠

قال بعد ثلاثة أسابيع ان الشيك لم يصل بعد الى البنك بما يثبت صحة التوقيعات :

ـ لاتقلق ..

قال بعد ثلاثة أسابيع أخرى :

ـ نحن نأسف أن نبلغك أن الشيك لم يصل بعد وعليه التأشيرة .. اجراءأت لابد منها ..

نادتنى خطيبة ابنى التى تقيم فى منزلنا منذ أشهر وقالت ان هناك من يطلبنى هاتفيا ..

جاءنى صوت الموظف وقد علته البشاشة قائلا :

ـ أبشر ياسيد .. لقد وصلت التأشيرة أخيرا .. الشيك صحيح .. والتوقيعات صحيحة ويمكنك أن تحضر فى أى وقت لتستلم المبلغ ..

ارتفعت الدعوات فى أرجاء المنزل .. رقصت ابنتى .. ضحك العجوز بشدة وهو راقد على سريره قال ان الله قد عوض صبر الجميع خيرا .. وأن المشاكل ستحل أخيرا .. قلت وأنا أرتدى ملابسى :

ـ من ضحك أخيرا ضحك كثيرا ..

·· رافقتنى خطيبة ابنى الى البنك ·· السيارة تمرق بنا الشوارع مسرعة · قلت لها مداعبا :

ـ أرجوك لاتصدمين آحدا والا ضـاعت فرصتنا هبـاء ·

فى البنك قابلنى الموظف وقد اختفت البشاشة من وجهه · حيانى بطريقة لاتبعث على الاطمئنان داخلى ·· الشيك أمامه ·· تنهدت وآنا آمسكه بيدى ·· قلت للموظف :

ـ خيرا ·· هل من مشاكل جديدة ؟

مد لى بالرسالة المرفقـة بالشيك ·· قرآتها ·· الشيك سليم ·· والمبلغ يجب أن يسلم الى صاحب الشيك «وأن على البنك أن يستلم فقط من صاحب الشيك تمغات توقيع لا أكثر » ··

قلت للموظف :

ـ ألا يوجد فى الخزانة نقود تكفى ؟

هز رأسه بالنفى ··

سألته الفتاة جزعة :

ـ لم نفهم ماذا حدث ·

اشار الى الشيك وقال :

ــ ألم تلاحظ أن الشيك مؤرخ منذ فترة ليست قصيرة وأن فترة السماح بصرفه قد انتهت من عدة أسابيع ٠٠؟

ــ انتفضت وأنا أصرخ فيه :

ــ اعرف تماما هذا ٠٠ ولكن ٠ الم يكن فى حوزتكم اثناء هذة الفترة ٠ ؟ من الذى اخره ٠ ؟ نحن أم أنتم ؟

قال بهدوء ذكرنى بالبحار الذى قذف بتابوت أخى فى البحر :

ــ اجراءات ليس علينا الا أن نتأكد منها ٠

وضع الشيك فى مظروف ومده لى ٠٠ قلت :

ــ على أن أقابل رئيس مجلس الادارة ٠

قال انه هو الذى لاحظ بنفسه هذه المخالفة ٠ انها تعليمات ونحن آسفين ٠٠ عليك أن ترسل الشيك الى أصحابه كى يغيرون التاريخ ويوقعون من جديد عليه ٠٠ أو يكتبون لك شيكا آخرا ٠٠ بمنتهى البرود قال :

ـ يمكنهم أن يؤرخوا الشيك بتاريخ متأخر لعدة أشهر وأن يرسلوا أيضا بيانا به صحة التوقيعات انهـا مسألة وقت ..

خرجت من البنك وأنا ألعن وأسب كل بنوك الدنيا .. وكل البحارة الذين يرمون التوابيت فى المياه بينما ارتفع صوت الفتـاة وهى تبكى وقد اكتفى الآخـرون بالنظر اليها .. بلهاء .. لماذا نفعل ذلك ؟

فى صباح اليوم التالى رميت فى صندوق البريد رسالة مسجلة بها شيك بمبلغ كبير للغاية .. لم يستطع صاحب الشيك أن يصرفه .. وكتبت لابنتى كلاما كثيرا قلت فى نهايته .. وحتى الآن لم تصلنا الثروة الحقيقية بعد .. نحن مازلنا فى انتظارها ..

الفصل السابع :

« ابنتى ٠٠ لاتستطيع أن تتصور مدى ماحدث ٠٠ أشياء لاتحدث سوى يوم القيامة ٠٠ السماء تنهال فوق الأرض ٠٠ الأرض تنشق وتبتلع الكثير من فوقها ٠٠ المبانى ٠٠ السيارات ٠ الحوانيت ٠٠ الأشخاص ٠٠ لا أحد يمكنه أن يبكى أو يصرخ فجوف الأرض أسرع من كل الصراخات ٠٠ ألوان عديدة تراها فى نفس اللحظة ٠٠ لكن كل الألوان تصبح سوداء أمامك ٠٠ يخيل اليك أنك ترى كل شىء ٠٠ وأنك لم تعد ترى شيئا الا أمطارا تنبعث من الأرض ٠٠ وأشياءا كثيرة تبتلعها السماء ولاترى ٠٠ كل شىء يحرق العيون والاذان ٠٠ أفواه مفتوحة لاتفعل شيئا سوى الصراخ يتحول الأطفال الى كرات صغيرة تتدحرج على الأرض التى تبتلعها ٠٠ أو تصيبها النيران فتحرقها وتحيلها فى لحظات الى كتلة من الفحم الاسود ٠٠ لاتعرف ماذا جرى ٠٠ أهى لعنة من السماء ؟٠ أم أنها تذكرة من الله أن علينا أن ننتبه نحن الآدميون أن يوم البعث قادم ؟٠ بدأ هذا فى الثانية

عشر ظهـرا الا خمس دقائق ٠٠ وانتهى بعـد دقيقات صغيرة ٠٠ أو لعلها ساعات طويلة ٠٠ كنت وحدى فوق الجبل مع ابنى الصغير وجدت نفسى أتدحرج معه فوق الأرض ٠٠ كل شيء يهتز من حولنا ٠٠ ثم انتهى ماحدث فجأة كما بدا ٠٠ ولم أنتبه الا وأنا فى مخيم الغوث ٠٠ يقولون ان انهيارا عصبيا أصابنى مثلما حدث مع كل الناجين من الحادث ٠٠ شعرت بالاختناق وأنا أرى ابنى راقدا فوق السرير المجاور ٠٠ قبلته بشغف ٠٠ عرفت أن كل من بالمنزل قد ابتلعتهم الأرض ٠٠ لاتقلق ياأبى ٠٠ مثل هذا الحادث يعلمنا الكثير ٠٠ صل من أجلنا ٠ لقد خسرنا كل ماكسبناه فى هذه البلاد ٠

أخفيت الرسالة عن أبى الذى لم يعـد يحتمل أية هزة نفسية ٠٠ قالت زوجة ابنى ان الصحف قد تحدثت عن هذا الحادث منذ عدة أشهر ٠٠ قالت ابنتى فى رسالة « ٠٠ نحن الآن أفضل ولذا تأخرت فى الكتابة اليكم حتى لاتصابوا بأية قلق» ٠٠

قالت زوجة ابنى :

ـ تعمدت أن أخفى عنك الصحف والراديو يومها ٠٠ لاتقلق ٠٠

قال ابنى انه أرسل لأخته يطمأن عليها فلم ترسل له رسالة واحدة وان هذه أول رسالة تصل المنزل منذ الحادث .. صرخت فيه :

ـ ولماذا لم تسافر كى تطمأن عليهم أيها ...؟

قال :

ـ قد يجعلك هذا أكثر حزنا وقلقا .. فقد قالت الصحف أن الضحايا كثيرون ..

ـ ولماذا لم تخبرنى لاسافر أنا ..؟

ـ أنت مريض .. لاتحتمل آية لون من الارهاق ..

كان السؤال الذى علينا آن نطرحه هو ماذا نفعل ازاء المرأة وابنها .. لقد أعطتهم الحكومة مسكنا صغيرا يقيمون به .. وبعض المعونات . لكن هذا لايكفى .. قلت ان علينا أن نبعث ونطلب منها ان «احضرى بسرعة فمنزلك فى انتظارك ..» .. ردت على البرقية بأخرى قالت فيها :

أنا هنا فى بلد زوجى وعمى وابنى وسأعيش هنا الى الأبد .

كتبت فى رسالتها التى بعثتها على عجل أيضا :

ـ بالرغم مما حدث ·· فلم يفكر أحد هنا أن يهجر المدينة ·· ولا أن يرحلوا الى مناطق أخرى ··

قال أخوها ان اخته دائما مجنونة ·· تزوجت من ابن عمها بأسلوب غريب ·· وأرسلت شيئا لم نستطع صرفه ·· ثم هى تلتصق بأرض فيها كل كوارث الدنيا ·· هذه المرأة نفسها كارثة ·· سأسافر وأحضرها بنفسى ·· أعد الرجل عدته للسفر كى يأتى بأخته ·· لكن لانعرف ما الذى دفعه الى أن يتراجع فى آخر يوم ·· قال :

ـ أخاف ركوب الطائرات ·· الحوادث كثيرة هذه الأيام ··

قالت زوجته :

ـ اذن سأسافر أنا ·· أو لنجعل أحد هؤلاء العواجيز يسافر ·· أبوك فى السبعين ·· وجدك اجتاز المائة وصلتنا رسالة من ابنتى تؤكد اصرارها أن تبقى ببلاد ماوراء البحار ··» هنا ابتلعت الأرض زوجى وأخاه وأمهما ·· وأنا أشعر أننى كلما وطأت فوق الأرض أنهم ينظرون الى من أسفل ·· انهم معى فى كل مكان » ··

قلت :

ـ اذا كانت أختك مجنونة ٠٠ فعلينا أن نرسل لها أموالا كى يمكنها أن تلئم الجرح الذى أصابها ٠٠

قالت زوجة ابنى :

ـ لم يعد فى المنزل رصيد كبير يمكننا أن نرسله ٠٠

قال زوجها :

ـ نبيع السيارة ٠

بعد عدة أيام قدم لى ثمن السيارة وقال :

ـ لم نستطع أن نوفر سوى هذا المبلغ ٠٠

أرسل شيكا باسم اخته الى بنك فى المدينة المجاورة لمدينتها ٠ كتبت الفتاة انه لم يكن هناك داع لارسال مثل هذا المبلغ ٠٠ «أنا بخير والحمد لله» ٠٠

قلت لابنى :

ـ ليس لاختك الآن أهل أو أقارب ٠٠ ولا مسكن مريح كالذى اعتادت عليه ٠٠ يجب أن تأتى بها بأى شكل سأسافر وآت بها ٠٠

قال :

ـ هناك اقتراح أفضل ٠٠

حدثني ان هناك رجلا كان يحبها قبل أن تسافر الى الخارج ٠٠ وانه قد دهش من سـعي الفتاة وراء المال وهي المشهورة داخل الجامعة بالمثاليات ٠٠ «هذا الشاب يود أن يتزوج أختى ٠٠ لقـد فشـل فى الزواج ثلاث مرات ٠٠ قال انه يرى خيالات تحوم حوله بأنه سيتزوج أختي يوما ٠٠» ٠٠

قلت لابنى :

ـ دعنى أقابل هذا الرجل ٠

استقبلته فى المسـاء ٠٠ نظر الى صـورة للفتاة بالصالة وقال :

ـ كأنني رأيتها بالأمس ٠٠

قال ونحن نحتسى القهوة :

ـ اذا فكرت أن تعيش هنا فسأجعلها سعيدة ٠٠

ردت ابنتى فى الهاتف :

ـ لا أود أن أتزوج ٠ سأربى ابنى ٠٠

تم ذلك فى أول اتصال بيننا بعد عدة سنوات من

الانقطاع . بكيت وأنا أسمع صوتها لم يعد له نفس نبرات البراءة والشقاوة .. قالت :

ـ اذا بكيت أنت فماذا أفعل أنا ..؟

بعد حديث طويل حدثتها عن الرجل الذى يريد الزواج منها .. قلت :

ـ لن يغير الكثير من حياتك .. سيعيش ابنك معكما . حدثنى أنه كان مغرما بك أيام الجامعة انه أحد أثرياء المدينة .. أنا أعرف أن الثراء لم يعد يغريك .. لكنه انسان رائع ..

كتبت برقية . أن على ألا أفكر فى مسألة زواجها كثيرا .. كتبت لها خطاب قلت فيه :

ـ مازلت صغيرة يافتاتى .. وأعتقد أنك مازلت جميلة مثلما كنت قبل أن تسافرى .. ومن حقك أن تعيشين بقية حياتك فى كنف رجل آخر يخاف عليك ويدفىء فراشك .

ردت فى خطاب آخر :

ـ ابنى يدفىء فراشى .

حدثتها فى الهاتف :

ـ أيتها الملعونة ‥ أنت تعرفين أن أسرتنا تميل الى الاستقرار ‥ والزواج هو الاستقرار . ابنك سيدفىء فراش زوجته ‥ هاك عريسك يود محادثتك .

قال الرجل بعد أن انتهى من محادثتها :

ـ اتفقنا على أشياء كثيرة ‥ لقد تذكرتنى ‥ لكنها لن تحضر ‥

قالت زوجة ابنى :

ـ دائما صلبة الرأى !!

قال عريس ابنتى :

ـ سأرحل اليها ‥ أقنعتنى بذلك ‥

ـ ومشاريعك هنا وأعمالك ؟

ـ سأنقلها الى هناك ‥

ـ لقد تغيرت الدنيا . أناس كثيرون يأتون من وراء البحار لاقامة مشاريع فى بلادنا واليوم ينقل أحدنا أعماله الى ماوراء البحار ‥ هل هو الحب ‥؟ـ لا أعتقد .

ـ ابنتك انسانة ظريفة ‥

ـ اعذرني ·· يبدو أنك لست في كامل قواك ··
كنت أتصـور أنك ستجعلني أراها مـرة أخرى تعيش بيننا ·· لكن أعتقـد أن كل من يذهب وراء البحـار لايعود ··

لماذا لا أرحل اليها ··؟ الحياة هناك جميلة ·

ـ والحياة هنا ليست قبيحة ·· انها أكثر جمالا ·· وسط أهلك وأهل زوجتك ·· من أسباب موافقتي على زواجها بك انك ستقنعها بالعودة ·

ـ لكنها متعلقة بأشياء كثيرة هناك ··

لم تعجبني استكانته بسرعة لرأى ابنتى ·· يود أن يبيع ممتلكاته ·· والتصرف في تجارته والسفر هناك ·· لايمكنني أن أعزو ذلك الى حب قديم استيقظ ثانيا في داخله · فهو من الذين يقيسون الأشياء بعقولهم ·· ولا لطموح استبد بأبي يوما أن نحقق ثروة من خلال جميع أفراد الأسرة الا بلاد يقال انها مليئة بالثروات ·· قال :

ـ كما بدأت هنا من الصفر يمكنني أن أفعل ذلك هناك ·

ـ اعطني سببا واحد لهذا الاستسلام الغريب ..

ـ النقود ... هي شيء جميل في نظر الكثيرين .. لكنها لاتغريني كثيرا . سأذهب هناك ربما أجد راحة أبحث عنها .. قد لا أكون سعيدا . لكنها رغبة جامحة تدفعني أن أرحل هناك ..

قالت زوجة ابني ان هذا النوع الغريب من الرجال يندفع دائما وزاء امرأة ترفض .. وتعامله بكبرياء وانها فهمت من حديثه معها أنه يسعى لأشياء ليست في يده حتى اذا ملكها زهدها .. تلك هي المشكلة ..

لم أستطع أن أحدثه أنني لاأوافق على الاقتران بابنتي .. كانا يتصلا ببعضهما واتفقا على كل شيء . بدأ يبيع العديد من الأشياء التي يمتلكها .. وهب أشياء أخرى للأعمال الخيرية .. أعد أوراق سفره .. اشترى هدايا تذكارية .. عندما ركب السفينة أخذ معه العديد من الحقائب . من الغريب أنه حول الكثير من الثروات التي معه الى بنك يتبع فرعه الرئيس فيما وراء البحار ..

قلت لابني :

ـ انها وسيلة للنصب والاحتيال .

قال :

ـ من الواجب عقد القران قبل السفر ٠٠ أعتقد أنه سيطلق المرأة بعـد عدة أشـهر من زواجهما ٠٠٠ وسنصاب بصدمة ٠٠

قالت ابنتى من خلال الهاتف :

ـ لم تصل السفينة بعـد ٠٠ لست بالغبـاء الذى تصورتنى به ٠ سأحبه وسأعطيه الحنان وسأعلمه أشياء كثيرة لم يعتد عليها ٠٠

قلت ضاحكا :

ـ لو أننى أعرف جاذبيتك الشديدة للرجال الى هذا الحد لزوجتك هنا لأعظم ملوك الأرض ولجئت به ليحكم العـالم من مدينتنا ٠٠ ولحققنا الثروة التى كنا نبتغيها ٠٠

ردت :

ـ لاتيأس ياأبت ٠٠ الحياة مراحل والثروة ستصل يوما ٠ كنا يوما نمتلك الكثير ٠٠ ونأمل اليوم أن نحقق الكثير ٠٠ بدأ عود ابنى يشتد وسـيعمل ٠٠ سنزوجه

بعد سنوات ·· ربما أتمكن من الحمل قريبا وسأنجب أطفالا أذكياء ·

ـ أتعرف ياأبت ماذا يعترينى الآن ·؟ أتمنى أن أحمل مائة مرة ·· فى كل مرة ألد ثلاثة توائم ·· لأملأ المدينة بأبناء أسوياء ·· وأرسل بعضهم اليكم وتتولون تربيتهم ··

قالت بعد اسبوع من وصول زوجها :

ـ عقدنا القران فور أن وصل ·· انه رجل رائع ياأبت ·· سوف ألد منه الكثيرين من الأولاد أنت تعرف أننى قد تجاوزت الأربعين بعامين ·· والحمل متعب فى هذا السن ·· أتعرف ماذا فعل فى أول ليلة ·؟ قال انه يريد أن يعيش بلا أبناء ·· أو بنات ·· ولكنه كان رائعا ·· سأرسل لكم قريبا بشرى أننى حامل ··

فى رسالتها الثالثة والعشرين بعد زواجها قالت انها رزقت بفتاة جميلة مثل أمها ·· أصبح لابنها أخت رائعة سوف يكون لها تأثير شديد على قلوب الرجال ·· قرر زوجها فور أن ولدت أن يعد مشروعا جديدا لانجاب جيل آخر ··

حدثتها فى الهاتف عندما اتصلت بى أن عليها ألا

تفكر فى انجاب الأطفال ٠٠ عليها أن تحتفظ بزوجها ٠٠ وأن يسعى الجميع الى تأمين مستقبل الطفلة ٠٠ قلت ان أخاها قد رزق بمولود ٠٠ وأن علينا أن نسعى الى تأمين مستقبله ٠٠

بدأت المرأة وزوجها يعيدان بناء الكثير مما افتقداه فى الحادث الرهيب الذى أصاب المدينة ٠٠ بنيا معا منزلا صغيرا ٠٠ اشتريا الكثير من الأراضى الزراعية وبدأ يقوم بزراعتها ٠٠ فى فترة قصيرة استطاع أن يحقق الكثير ٠٠ بدأت الأسرة تتحدث من جديد حول ثروة يمكن أن تسعى ابنتى الى تحقيقها خلال السنوات القليلة القادمة جلست يوما فى غرفة أبى وتحدثنا معا ٠٠ ذكرتنى بأيام كان أبى أكثر الآدميين حماسا الى تحقيق ثروة ٠٠ مازلنا بعد هذا العمر الطويل نسكن نفس الشقة ٠٠ نفس الاثاث الذى كنت به عريسا هو الذى أنام عليه ٠٠ وأنت تنام فى الغرفة المجاورة فى سرير زوجتك ٠٠ وابنك فى الغرفة التى كنا نخصصها للزائرين ٠٠ لم تتغير الاشياء كثيرا ٠٠ سوف تظل ترسل خطابات وبشر الى ماوراء البحار ٠٠ كى نحقق أملا نود جميعا أن نحققه ٠

قلت لأبى :

ـ فى بعض الأحيان أتصور أننا سلالة من المجاذيب ·· كلنا نؤمن بهذه الفكرة ·· ولم يفقد أحدنا الأمل يوما فى تحقيقها ·· وكلما نقترب من اليأس يضاء مصباح يبعث على الأمل داخلنا ·· فنعود لنصدقه ·· حتى ابنى ·· انه أشد المتحمسين الآن لوصول الثروة بعد أن كان يسخر منا يوما ·· أتعرف ماذا قال حين باع سيارته وأرسل ثمنها الى أخته ·· «يوما ما ستعود أختى ثرية ·· وستحاول رد هذا الدين مضاعفة ·· سترسل أكياسا من الذهب مع مبعوث خاص من وراء البحار بدلا من ذلك الشيك الذى فشلت يوما فى صرفه ·· »

بالأمس فقط وصلتنى رسالة طويلة من ابنتى :

« بدأت الأشياء تعود الى سابق عهدها ·· الناس فى المدينة بدأوا يكتسون بنفس الملامح التي كانت تكسوهم فيما قبل ·· يبتسمون نفس الابتسامات ·· يتبادلون الهمسات ·· العشاق يتناولون قبلاتهم فى الشوارع والميادين ·· الباعة ينتشرون فى الأسواق · يبيعون فاكهة القرى المجاورة للمدينة ·· وخضروات مدينتنا ·· لم نتذوقها منذ أمد طويل ·· فتحت البنوك أبوابها ·· عادت البورصة للعمل ·· ليس بنفس

الحماس والاندفاع ولكن الأمل يراود الجميع .. أتعرف ماذا قال زوجى حين وضع أول مبلغ كبير فى بنك المدينة الذى افتتح فى الاسبوع الماضى : يوما ما سنرسل مبلغا كبيرا الى أسرتك .. لاتقلق ياأبت .. فاذا أدام الله فى عمرك ووهبك الصحة فسوف تضلكم الثروة يوما .»

بعد الرحيل :

حلم غريب شاهدته قبل أن أرحل .. فى ليلة رحيلى شعرت بالاختناق يسد حلقي .. حملني ابني وأبناءه الى غرفتى .. أخذ يدلك لى قدمى وصدرى .. جاء الطبيب ... أعطانى حقنة وقال ان دعوه يستريح . رأيت شيئا أشبه بالحلم ان هناك صندوقا كبيرا يحلق فى السماء .. له جناحين أشبه بطائرة كبيرة .. رأيت أخى بداخلها أم لا أعرف هل رأيت جسدا آخر ؟ انه رجل فى الثانية والسبعين .. يرتدى ملابسا ذهبية اللون .. على الجانب أكياس كثيرة مربوطة بأحبال ذهبية .. طار الصندوق بعيدا .. الطبيب لايزال يقف مع ابنى فى الصالة يحدثه أنه لا أمل يرجى فى حياتى .. يبدو الصندوق أكثر خفة من ريشة فى هواء عاصف .. شىء يخنقنى والصندوق يكاد أن يقع .. لكنه يطير بسرعة

كبيرة ٠٠ قبل أن أغلق عينى تمـاما رأيت لآخـر مرة اللوحة التى شاهدتها عددا من المرات لا أعرف كم ٠٠ « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ٠٠ »

بعد أن أرقدونى فى مكان مظلم عاد ابنى الى المنزل ليجد رسالة من أخته قالت فيها :

« أبت ٠٠ سـوف يتحقق الأمل فعلا هـذه المرة ٠ لاتقلق ٠٠ اتخذنا كل الاجـراءات ٠٠ كى نطمئن أن الثروة ستصل هذه المرة دون أية مشاكل ٠٠ أخبر كل من فى المنزل أن الأمل سوف يتحقق ٠٠»

محمود ٠٠ قاسم

١٩٨١

جمهورية مصر العربية

مطبوعات
المجلس الأعلى للثقافة

رقم

- ٢٧١ -

القاهرة
١٤٠٣ ـ ١٩٨٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٥٣٧٩

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٢٤٩ ـ ٠

